

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

قال البخاري : حدثنا محمد بن بشار ، ثنا غندر ، ثنا شعبة عن أبي اسحاق سمعت عبد الرحمن بن زيد عن عبد الله قال ، بنو إسرائيل ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء ، هن من العتاق الأول وهن من ثلاثي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدِّدٍ إِلَّا آسَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلَكُمُ أَفْتَاتُونَ أَلْسِخِرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ ﴿٥﴾ مَا أَمَنْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

هذا تنبيه من الله عز وجل على اقتراب الساعة ودنوها ، وان الناس في غفلة عنها ، أي لا يعملون لها ولا يستعدون من أجلها . وقال النسائي : حدثنا أحمد بن نصر ، حدثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسي ، حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد عن النبي ﷺ ﴿ في غفلة معرضون ﴾ قال « في الدنيا » . وقال تعالى : ﴿ اني امر الله فلا تستعجلوه ﴾ وقال ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ﴾ الآية ، وقد روى الحافظ ابن عساکر في ترجمة الحسن بن هانئ أبي نواس الشاعر انه قال : اشعر الناس الشيخ الطاهر ابو العاتبة حيث يقول :

الناس في غفلاتهم
ورحاً المنية تطحن

فقيل له : من أين اخذ هذا ؟ قال من قول الله تعالى : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ وروي في ترجمة عامر بن ربيعة من طريق موسى بن عبيد الأمدي عن عبد الرحمن بن زيد بن اسلم عن أبيه عن عامر بن ربيعة انه نزل به رحل من العرب ، فأكرم عامر مثواه ، وكلم فيه رسول الله ﷺ فجاءه الرجل فقال : اني استقطعت من رسول الله ﷺ واديا في العرب ، وقد أردت ان أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك ؛ فقال عامر : لا حاجة لي في قطيعتك ، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ .

ثم أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار ، فقال ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ أي جديد إنزاله ﴿ إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾ كما قال ابن عباس : ما لكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه ، وكتابتكم أحدث الكتب بالله تقرأونه محضاً لم يشب ، رواه البخاري بنحوه .

وقوله ﴿ وأسروا النجوى الذين ظلموا ﴾ أي قائلين فيما بينهم خفية ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ يعنون رسول الله ﷺ يستعدون كونه نبياً لأنه بشر مثلهم ، فكيف اختص بالوحي دوتهم ، ولهذا قال ﴿ أفئاتون السحر وأنتم تبصرون ﴾ أي أفنتعونه فتكونون كمن يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر ؛ فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب ﴿ قال ربّي يعلم القول في السماء والأرض ﴾ أي الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية ، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين ، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض . وقوله ﴿ وهو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوالكم والعليم بأحوالكم ، وفي هذا تهديد لهم ووعد . وقوله ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه ﴾ هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم واختلافهم فيما يصفون به القرآن ، وحيرتهم

فيه وضلاهم عنه ، فتارة يجعلونه سحراً ، وتارة يجعلونه شعراً ، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام ، وتارة يجعلونه مفترى ، كما قال ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوها فلا يستطيعون سبيلاً ﴾

وقوله ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ يعنون كنانة صالح وآيات موسى وعيسى وقد قال الله ﴿ وما معنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ الآية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ﴾ أي ما آتينا قرية من القرى الذي بعث فيهم الرسل آية على يدي نبيها فأمنوا بها بل كذبوا ، فأهلكناهم بذلك أنهؤلاء يؤمنون بالآيات لورأها دون أولئك ؟ كلا ، بل ﴿ إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ هذا كله وقد شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات والدلائل البينات على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى وأبهر وأقطع وأقهر مما شوهد مع غيره من الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

قال ابن أبي حاتم رحمه الله : ذكر عن زيد بن الحباب ، حدثنا ابن لهيعة : حدثنا الحارث بن زيد الحضرمي عن علي بن رباح اللخمي ، حدثني من شهد عبادة بن الصامت يقول : كنا في المسجد ومعنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقرأ بعض القرآن ، فجاء عبد الله بن أبي بن سلول ومعه غمزة وزرية ، فوضع وانكأ ، وكان صبيحاً فصيحاً جدلاً ، فقال : يا أبا بكر ، قل لمحمد يأتينا بآية كما جاء الأولون ، جاء موسى بالألواح ، وجاء دود بالزبور ، وجاء صالح بالناقة ، وجاء عيسى بالإنجيل وبالماندة ؛ فبكى أبو بكر رضي الله عنه ، فخرج رسول الله ﷺ فقال أبو بكر : قوموا بنا إلى رسول الله ﷺ نستغيث به من هذا المناق ؛ فقال رسول الله ﷺ : ﴿ إنه لا يقام لي إنما يقام لله عز وجل ﴾ قلنا : يا رسول الله إنا لقينا من هذا المناق ، فقال ﴿ إن جبريل قال لي اخرج فأخبر بنعم الله التي أنعم بها عليك ، وفضيلته التي فضلت بها ، فبشرني أني بعثت إلى الأحمر والأسود ، وأمرني أن أنذر الجن ، وآتاني كتابه وأنا أمة ، وغفر ذنبي ما تقدم وما تأخر ، وذكر اسمي في الأذان ، وأمدني بالملائكة ، وآتاني النصر ، وجعل الرعب أمامي ، وآتاني الكوثر ، وجعل حوضي من أكثر الحياض يوم القيامة وروداً ، ووعدني المقام المحمود والناس مهطعون مقنعون رؤوسهم ، وجعلني في أول زمرة تخرج من الناس ، وأدخل في شفاعتي سبعين ألفاً من أمتي الجنة بغير حساب ، وآتاني السلطان والملك ، وجعلني في أعلى غرفة في الجنة في جنات النعيم ، فليس فوقني أحد إلا الملائكة الذي يحملون العرش ، وأحل لي ولأمتي الغنائم ولم تحل لأحد كان قبلاً ، وهذا الحديث غريب جداً .

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَشَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا

لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمِنْ نَشَاءِ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾

يقول تعالى راداً على من أنكر بعثة الرسل من البشر ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليه ﴾ أي جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر لم يكن فيهم أحد من الملائكة ، كما قال في الآية الأخرى ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ وقال تعالى ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾ وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم ، لأنهم أنكروا ذلك فقالوا ﴿ أبشر يهودنا ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ أي اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف : هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة ؟ وإنما كانوا بشراً ، وذلك من تمام نعمة الله على خلقه إذ بعث فيهم رسلاً منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم .

وقوله ﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ﴾ أي بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ أي قد كانوا بشراً ، من البشر يأكلون ويشربون مثل الناس ، ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة ، وليس ذلك بضر لهم ولا ناقص منهم شيئاً ، كما توهم المشركون في قوهم ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ﴾ أو يلقي إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ﴿ الآية .

وقوله ﴿ وما كانوا خالدين ﴾ أي في الدنيا ، بل كانوا يعيشون ثم يموتون ﴿ وما جعلنا بشر من قبلك الخلد ﴾ وخاصتهم أنهم يوحي إليهم من الله عز وجل ، تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكمه في خلقه مما يأمر به وينهى عنه ، وقوله ﴿ ثم صدقناهم الوعد ﴾ أي الذي وعدهم ربهم ليهلكن الظالمين صدقهم الله وعده وفعل ذلك ، ولهذا قال ﴿ فأنجيناهم ومن نشاء ﴾ أي أتباعهم من المؤمنين ﴿ وأهلكنا المسرفين ﴾ أي المكذبين بما جاءت به الرسل .

لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا
 آخَرِينَ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَّكُمْ آسَاءُ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٩﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكَنِكُمْ لَعَلَّكُمْ
 تَسْتَلُونَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا إِنَّا بِنُورِنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢١﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى منبهاً على شرف القرآن ومحرضاً لهم على معرفة قدره ﴿ لقد أنزلنا اليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ قال ابن عباس : شرفكم . وقال مجاهد : حديثكم . وقال الحسن : دينكم ، ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي هذه النعمة ، وتلقونها بالقبول ، كما قال تعالى : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تستلون ﴾ . وقوله ﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ﴾ هذه صيغة تكثير ، كما قال ﴿ وكم أهلكتنا من القرون من بعد نوح ﴾ وقال تعالى : ﴿ وكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها ﴾ الآية .

وقوله ﴿ وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾ أي أمة أخرى بعدهم ﴿ فلما أحسوا بأسنا ﴾ أي تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم ﴿ إذا هم منها يركضون ﴾ أي يفرون هارين ﴿ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومسكنكم ﴾ هذا تهكم بهم نزرأ ، أي قيل لهم نزرأ لا تركضوا هارين من نزول العذاب ، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمسكن الطيبة . قال قتادة استهزاء بهم ، ﴿ لعلكم تسألون ﴾ أي عما كنتم فيه من أداء شكر النعم ، ﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ اعترفوا بذنوبهم حين لا يفتعهم ذلك ، ﴿ فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾ أي ما زالت تلك المقالة ، وهي الاعتراف بالظلم هجيراً هم حتى حصدها لهم حصداً ، وخذت حركاتهم وأصواتهم خموداً .

وَمَخْلَقَاتِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا لِيَعْلَمِينَ ﴿٢٣﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٢٤﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ
 لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿٢٦﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٧﴾

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض والحق ، أي بالعدل والقسط ، ليجزي الذين أسأؤا بما عملوا ، ويجزي الذي أحسنوا بالحسنى ، وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً كما قال ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ﴾ قال ابن أبي نجيب عن مجاهد ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ﴾ يعني من عندنا ، يقول : وما خلقنا جنة ولا ناراً ولا موتاً ولا بعثاً ولا حساباً . وقال الحسن وقاتدة وغيرهما ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً ﴾ اللهم المرأة بلسان أهل اليمن . وقال إبراهيم النخعي ﴿ لاتخذناه ﴾ من الحور العين . وقال عكرمة والسدي : والمراد باللغو ههنا الولد ، وهذا والذي قبله متلازمان ، وهو كقوله تعالى : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولدأ لأصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ فنزه نفسه عن اتخاذ الولد مطلقاً ولا سيما عما يقولون من الافك والباطل من اتخاذ عيسى أو العزيز أو الملائكة ﴿ سبحانه الله عما يقولون علواً كبيراً ﴾ .

وقوله ﴿ إن كنا فاعلين ﴾ قال قتادة والسدي وإبراهيم النخعي ومغيرة بن مقسم : أي ما كنا فاعلين . وقال مجاهد كل شيء في القرآن إن فهو إنكار . وقوله ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل ﴾ أي نبين الحق فيدحض الباطل ، ولهذا قال ﴿ فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ أي ذاهب مضمحل ﴿ ولكم الويل ﴾ أي أيها القائلون لله ولد ﴿ بما تصفون ﴾ أي تقولون وتفترون . ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً ، فقال ﴿ وله من في السموات والأرض ومن عنده ﴾ يعني الملائكة ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ﴾ أي لا يستكفون عنها ، كما قال ﴿ لن يستكف المسبح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ﴾ ومن يستكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴿ .

وقوله ﴿ ولا يستحسرون ﴾ أي لا يتعبون ولا يملون ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ فهم دائبون في العمل

ليلاً ونهاراً ، مطيعون قصداً وعملاً ، قادرون عليه ، كما قال تعالى : ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن أبي دلامة البغدادي ؛ أنبأنا عبد الوهاب بن عطاء حدثنا سعيد عن قتادة عن صفوان بن محرز عن حكيم بن حزام قال : بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم « هل تسمعون ما أسمع ؟ » قالوا : ما نسمع من شيء ؛ فقال رسول الله ﷺ « اني لأسمع أطيط النساء ، وما تلام ان تنط وما فيها موضع شبر الا وعليه ملك ساجد أو قائم ، غريب ، ولم يخرجوه ؛ ثم رواه - أعني ابن أبي حاتم - من طريق يزيد بن أبي زريع عن سعيد عن قتادة مرسل . وقال محمد بن اسحاق عن حسان بن محارق عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال : جلست الى كعب الأحبار وأنا غلام ، فقلت له : أرأيت قول الله تعالى للملائكة ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ أما يشغلهم عن التسبيح الكلام والرسالة والعمل . فقال : من هذا الغلام ؟ فقالوا من بني عبد المطلب ، قال : فقبل رأسي ثم قال : يا بني انه جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النفس ، أليس تتكلم وأنت تنفس ، وتغشي وأنت تتنفس ؟ .

أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَبِحَحْنِ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْتَلَّ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ ﴿٢٣﴾

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال ﴿ ام اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ﴾ أي أهم يجيئون الموق وينشرونهم من الأرض ، اي لا يقدرن على شيء من ذلك ، فكيف جعلوها لله نداً وعبدوها معه ؟ ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات والأرض ، فقال ﴿ لو كان فيها آلهة ﴾ أي في السموات والأرض ﴿ لفسدتا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون ﴾ وقال ههنا ﴿ فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ أي عما يقولون أن له ولداً أو شريكاً سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذي يفترون ويفكرون ويفكرون علواً كبيراً .

وقوله ﴿ لا يستل عما يفعل وهم يستلون ﴾ أي هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله وكبريائه وعلمه وحكمته وعدله ولطفه ، ﴿ وهم يستلون ﴾ أي وهو سائل خلقه عما يعملون كقوله ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ وهو يجير ولا يجار عليه ﴾ .

أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي بَلْ كَثُرُوا لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ إِلَهٌ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى : ﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة قل ﴾ يا محمد ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ أي دليلكم على ما تقولون ﴿ هذا ذكر من معي ﴾ يعني القرآن ﴿ وذكر من قبلي ﴾ يعني الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمون ، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا الله ، ولكن انتم ايها المشركون لا تعلمون الحق فانتم معرضون عنه ، ولهذا قال ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ كما قال ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجمعنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ وقال ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والفترة شاهدة بذلك أيضاً ، والمشركون لا برهان لهم ، وحجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد .

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْتَفِئُونَ بِالْقَوْلِ وَأَنَّهُمْ بِأَمْرِهِ يُعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّن خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِّنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ نَجْزِي الظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى رداً على من زعم أن له تعالى وتقدس ولداً من الملائكة ، كمن قال ذلك من العرب : إن الملائكة بنات الله فقال ﴿ سبحانه بلي عباد مكرمون ﴾ أي الملائكة عباد الله مكرمون عنده في منازل عالية ومقامات مامية ، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلًا ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ أي لا يتقدمون بين يديه بأمر ولا يخالفونه فيما أمرهم به ، بل يبادرون إلى فعله ، وهو تعالى علمه محيط بهم فلا يخفى عليه منهم خافية ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ . وقوله ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ كقوله ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ . وقوله ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ في آيات كثيرة في معنى ذلك ﴿ وهم من خشيته ﴾ أي من خوفه ورهبته ﴿ مشفقون ﴾ ومن يقل منهم اني اله من دونه ﴿ اي من ادعى منهم انه اله من دون الله اي مع الله ﴾ فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴿ اي كل من قال ذلك ، وهذا شرط ، والشرط لا يلزم وقوعه ، كقوله ﴿ قل ان كان للرحمن ولد فانا أول العابدين ﴾ ، وقوله ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ .

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا
 مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يَتُوبُونَ ﴿٢٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ
 يَهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٢٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ
 وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى منها على قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء وقهره لجميع المخلوقات ، فقال ﴿ أو لم ير الذين كفروا ﴾ أي الجاحدون لإهيته العابدون معه غيره ، ألم يعلموا ان الله هو المستقل بالخلق المستبد بالتدبير ، فكيف يليق أن يعبد معه غيره ، او يشرك به ما سواه ، ألم يروا ان السموات والأرض كانتا رتقا اي كان الجميع متصلاً ببعضه ببعض متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر ، ففتق هذه من هذه ؛ فجعل السموات سبعاً ، والأرض سبعاً ، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء ، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض ، ولهذا قال ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ﴾ أي وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء .

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

قال سفيان الثوري عن أبيه عن عكرمة قال : سئل ابن عباس : الليل كان قبل أو النهار؟ فقال : رأيتم السموات والأرض حين كانتا رتقا هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا إبراهيم بن أبي حمزة ، حدثنا حاتم عن حمزة بن أبي عمير ، عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما . قال : اذهب الى ذلك الشيخ فاسأله ، ثم تعال فأخبرني بما قال لك ، قال : فذهب إلى ابن عباس فسأله فقال ابن عباس : نعم كانت السموات رتقا لا تمطر ، وكانت الأرض رتقا لا تنبت ، فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر ، وفتق هذه بالنبات ؛ فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره ، فقال ابن عمر : الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتي في القرآن علماً ، صدق هكذا كانت ، قال ابن عمر : قد كنت أقول ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن ، فالآن علمت أنه قد أوتي في القرآن علماً . وقال عطية العوفي ، كانت هذه رتقا لا تمطر فأمطرت ، وكانت هذه رتقا لا تنبت فأنبتت .

وقال إسماعيل بن أبي خالد : سألت أبا صالح الحنفي عن قوله ﴿ أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ﴾ قال : كانت السماء واحدة وفتق منها سبع سموات ، وكانت الأرض واحدة وفتق منها سبع أرضين ؛ وهكذا قال مجاهد ، وزاد : ولم تكن السماء والأرض ستاسيتين . وقال سعيد بن جبير : بل كانت السماء والأرض ملتزقتين ، فلما رفع السماء وأبرز منها لأرض ، كان ذلك فتقها الذي ذكر الله في كتابه . وقال الحسن وقتادة : كانتا جميعاً ففصل بينهما بهذا الهواء . وقوله ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ أي أصل كل الأحياء . قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو الجاهر ، حدثنا سعيد بن بشير ، حدثنا قتادة عن أبي سيمونة عن أبي هريرة أنه قال : يا نبي الله إذا رأيتك قرت عيني وطابت نفسي ،

فأخبرنا عن كل شيء قال «كل شيء خلق من ماء». وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا ، همام عن قتادة عن أبي ميمونة عن أبي هريرة قال : قلت يا رسول الله أني إذ رأيتك طابت نفسي وقرت عيني ، فأنبئني عن كل شيء ، قال «كل شيء خلق من ماء» قال : قلت أنبئني عن امر إذا عملت به دخلت الجنة قال «أفش السلام ، وأطعم الطعام ، وصل الأرحام ، وقم بالليل والناس نيام ، ثم ادخل الجنة بسلام» ورواه أيضاً عبد الصمد وعفان وبهر عن همام ، تفرد به أحمد ، وهذا إسناد على شرط الصحيحين إلا أن أبا ميمونة من رجال السنن واسمه سليم ، والترمذي يصحح له ، وقد رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة مرسلًا ، والله أعلم .

وقوله ﴿وجعلنا في الأرض رواسي﴾ أي جبالاً أرسى الأرض بها وقررها وثقلها لئلا تتمد بالناس ، أي تضطرب وتتحرك ، فلا يحصل لهم قرار عليها لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع ، فإنه باد للهواء والشمس ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات والحكم والدلالات ، ولهذا قال ﴿أن تמיד بهم﴾ أي لئلا تتمد بهم . وقوله ﴿وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً﴾ أي نثرأ في الجبال يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم ، كما هو المشاهد في الأرض يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد ، فيجعل الله فيه فجوة ثغرة ليسلك الناس فيها من ههنا إلى ههنا ، ولهذا قال ﴿لعلهم يهتدون﴾ .

وقوله ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾ أي على الأرض وهي كالقبة عليها ، كما قال ﴿والسما بيناها بأيد وإنا لموسعون﴾ وقال ﴿والسما وما بناها﴾ «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بيناها وزيناها وما لها من فروج﴾ والبناء هو نصب القبة ، كما قال رسول الله ﷺ «بني الإسلام على خمس» أي خمسة دعائم ، وهذا لا يكون إلا في الخيام كما تمهده العرب ﴿محموظاً﴾ أي عالياً محروساً أن ينال . وقال مجاهد : مرفوعاً . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكي ، حدثني أبي عن أبيه عن أشعث يعني ابن إسحاق القمي عن جعفر ابن أبي المغيرة ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال رجل : يا رسول الله ما هذه السماء ؟ قال «موج مكفوف عنكم» إسناده غريب . وقوله ﴿وهم عن آياتها معرضون﴾ كقوله ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يرون عليها وهم عنها معرضون﴾ أي لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر ، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلاها ونهارها من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكماله في يوم وليلة ، فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذي قدرها وسخرها وسيرها . وقد ذكر ابن أبي الدنيارحه الله في كتابه التفكير والاعتبار : أن بعض عباد بني إسرائيل تعبد ثلاثين سنة ، وكان الرجل منهم إذا تعبد ثلاثين سنة أظلمت غمامة ، فلم ير ذلك الرجل شيئاً مما كان يحصل لغیره ، فشكى ذلك إلى أمه فقالت له : يا بني فلعلك أذنبت في مدة عبادتك هذه ؟ فقال : لا والله ما أعلمه ، قالت : فلعلك هممت ؟ قال : لا ولا هممت ، قالت : فلعلك رفعت بصرك إلى السماء ثم رددته بغير فكر ؟ فقال : نعم كثيراً ، قال : فمن ههنا أتيت ، ثم قال منبهاً على بعض آياته ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار﴾ أي هذا في ظلامه وسكونه وهذا بضياته وأنسه ، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى وعكسه الآخر ﴿والشمس والقمر﴾ هذه لها نور يضيئها وفلك بذاته وزمان على حدة وحركة وسير خاص ، وهذا بنور آخر وفلك آخر وسير آخر وتقدير آخر ﴿وكل في فلك يسبحون﴾ أي يدورون . قال ابن عباس : يدورون كما يدور المغزل في الفلكة قال مجاهد : فلا يدور المغزل إلا بالفلكة ، ولا الفلكة إلا بالمغزل ، كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا به ولا يدور إلا بهن ، كما قال تعالى : ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسيبانا ذلك تقدير العزيز العليم﴾ .

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنَّ مَتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٢١﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلَّوْكُمْ بِالْأَسْرِ وَالْحَبْرِ

فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى : ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك﴾ أي يا محمد ﴿الخلد﴾ أي في الدنيا بل ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ وقد استدلل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات وليس يحيى إلى الآن ، لأنه بشر سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً . وقد قال تعالى : ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ . وقوله ﴿أفانن مت﴾ أي يا محمد ﴿فهم الخالدون﴾ أي يؤملون أن يعيشوا بعدك لا يكون هذا بل كل إلى الفناء ، ولهذا قال تعالى : ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ وقد روي عن الشافعي رحمه الله أن أنشد واستشهد بهذين البيتين :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذي يعني خلاف الذي مضى تيباً لأخرى مثلها فكان قد

وقوله ﴿وَيُبَلِّغُكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أي نخبركم بالمصائب تارة وبالنعم أخرى ، فننظر من يشكر ومن يكفر ، ومن يصبر ومن يقنط ، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ونبلوكم يقول نبتليكم بالشر والخير فتنة بالشدة والرخاء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلال . وقوله ﴿وَاللَّيْلُ نَجْمٌ﴾ أي فنجازيكم بأعمالكم .

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذُكِّرُونَ

مَنْ كَفَرُوا ﴿٢٦﴾ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني كفار قريش كأبي جهل وأشباهه ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي يستهزئون بك ويستقصونك ، يقولون ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذُكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ يعنون أهذا الذي يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم ، قال تعالى : ﴿وَهُمْ يَذُكِّرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي وهم كفارون بالله ومع هذا يستهزئون برسول الله ، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً .

وقوله ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ أي في الأمور . قال مجاهد : خلق الله آدم بعد كل شيء من آخر النهار من يوم خلق الخلائق ، فلما أحيا الروح عينيه ولسانه ورأسه ، ولم يبلغ أسفله ، قال : يا رب استعجل بخلقى قبل غروب الشمس . وقال ابن أبي حاتم ؛ حدثنا أحمد بن سنان . حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا محمد بن علقمة بن وقاص الليثي عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أهبط منها ، وفيه تقوم الساعة وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يصلي - وقض أصابعه يقللها - فسأل الله خيراً إلا أعطاه إياه» قال أبو سلمة : فقال عبد الله بن سلام : قد عرفت تلك الساعة ، هي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة ، وهي التي خلق الله فيها آدم ، قال الله تعالى : ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك ، فقال الله تعالى : ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ لأنه تعالى يبلي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، يؤجل ثم يعجل ، وينظر ثم لا يؤخر ، ولهذا قال ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ أي نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ

وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٢٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدِّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٣٠﴾

يغير تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم تكديماً وجحوداً وكفراً وعناداً واستعداداً ، فقال ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال الله تعالى : ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ أي لو تيقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا به . ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظِلٌّ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظِلٌّ﴾ ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مَهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ﴾ وقال في هذه الآية ﴿حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ وقال ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ تَعْشَى وَجُوهِهِمُ النَّارُ﴾ فالعذاب يحيط بهم من جميع جهاتهم ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي لا ناصر لهم ، كما قال ﴿وَمَالِهِمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ . وقوله ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾ أي تأتيهم النار بغتة أي فجأة ، ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي تذرهم ، فيستسلمون لها حائزين ولا يدرون ما يصنعون ، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدِّهَا﴾ أي ليس لهم حيلة في ذلك ، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة .

وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِنَا مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلُؤُكُمْ
بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِن دُونِنَا
لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب ﴿ولقد استهزىء برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾ يعني من العذاب الذي كانوا يستبدون وقوعه ، كما قال تعالى : ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل للكلمات الله ﴾ ولقد جاءك من نبي المرسلين ﴿ثم ذكر تعالى نعمته على عبده في حفظه لهم بالليل والنهار ، وكلاءته وحراسته لهم بعينه التي لاتنام ، فقال ﴿قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن﴾ أي بدل الرحمن يعني غيره ، كما قال الشاعر :

جارية لم تلبس المرققا ولم تذق من البقول الفستقا

أي لم تذق بدل البقول الفستق . وقوله تعالى : ﴿بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ أي لا يعترفون بنعمة الله عليهم وإحسانه إليهم ، بل معرضون عن آياته وآلائه ، ثم قال ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ ، أي أهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا ؟ ليس الأمر كما توهموا ، ولا كما زعموا ، ولهذا قال ﴿لا يستطيعون نصر أنفسهم﴾ أي هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم . وقوله ﴿ولا هم منا يصحبون﴾ قال العوفي عن ابن عباس : ولا هم منا يصحبون أي يجارون . وقال قتادة : لا يصحبون من الله بخير . وقال غيره : ولا هم منا يصحبون يمنون .

بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ
الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّمْعُ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَمِن مَّسْتَهْزِئِهِمْ
نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ يَقُولُ نَبِيُّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ
نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين : إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال أنهم متعوا في الحياة الدنيا ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه ، فاعتقدوا أنهم على شيء ، ثم قال واعظاً لهم ﴿أفلا يرون أننا نأتي الأرض نناقصها من أطرافها﴾ اختلف المفسرون في معناه ، وقد اسلفنا في سورة الرعد وأحسن ما فسر بقوله تعالى : ﴿ولقد أهلكتنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾ وقال الحسن البصري : يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر ، والمعنى أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة وانجائه لعباده المؤمنين ، ولهذا قال ﴿أفهم الغالبون﴾ يعني بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون والأردلون .

وقوله ﴿قل إنما أُنذركم بالوحي﴾ أي إنما أنا مبلغ عن الله ما أُنذرتكم به من العذاب والنكال ، ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إلي ، ولكن لا يجدي هذا عن أعمى الله بصيرته وختم على سمعه وقلبه ، ولهذا قال : ﴿ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون﴾ وقوله ﴿ولئن مستهزئهم نَفْحَةٌ من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ أي ولئن مس هؤلاء المكذبين أذن شيء من عذاب الله ليعترفن بذنوبهم وأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدنيا . وقوله ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً﴾ أي ونضع الموازين العدل ليوم القيامة ، الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد لأعمال الموزونة فيه .

وقوله ﴿فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ كما قال تعالى : ﴿ولا يظلم

ربك أحداً ﴿ وقال ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ وقال لقمان ﴿ يا بني إنما إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن إسحاق الطالقاني ، حدثنا ابن المبارك عن ليث بن سعد عن عامر بن يحيى عن أبي عبد الرحمن الحجلي قال : سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : قال رسول الله ﷺ ﴿ إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجل مد البصر ، ثم يقول : أنتكر من هذا شيئاً ؟ أظلمت كتبتي الحافظون ؟ قال : لا يارب . قال : أفلك عذر أو حسنة ؟ قال : فبهت الرجل فيقول : لا يارب ؛ فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فيقول أحضروه ، فيقول يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : إنك لا تظلم ، قال : فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، قال : فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، قال : ولا يتقبل شيء مع بسم الله الرحمن الرحيم ، ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث الليث بن سعد ، وقال الترمذي : حسن غريب .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا ابن لهيعة عن عمرو بن يحيى عن أبي عبد الرحمن الحجلي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ توضع الموازين يوم القيامة ، فيؤق بالرجل فيوضع في كفة ، ويوضع ما أحصى عليه فيأبل به الميزان ، قال : فيبعث به إلى النار ، قال : فإذا أدبر به إذا صائح من عند الرحمن عز وجل يقول : لا تعجلوا . فانه قد بقي له ، فيؤق ببطاقة فيها لا إله إلا الله فتوضع مع الرجل في كفة حتى يميل به الميزان ، وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا أبو نوح مراراً ، أنبأنا ليث بن سعد عن مالك بن أنس عن الزهري عن عروة عن عائشة أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بين يديه ، فقال ، يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني ، وأضرهم وأشتمهم ، فكيف أنا منهم ؟ فقال له رسول الله ﷺ : ﴿ يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم ، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم ، كان كفافاً لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم ، كان فضلاً لك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم ، اقتص لهم منك الفضل الذي بقي قبلك ، فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويبتف ، فقال رسول الله ﷺ ﴿ وما له لا يقرأ كتاب الله ﴾ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ فقال الرجل : يا رسول الله ما أجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء - يعني عبده - إنني أشهدك أنهم أحرار كلهم .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنْ

السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿١٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٢٠﴾

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، وبين كتابيهما ، ولهذا قال ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ﴾ قال مجاهد : يعني الكتاب . وقال أبو صالح : التوراة . وقال قتادة : التوراة حلالها وحرامها ، وما فرق الله بين الحق والباطل . وقال ابن زيد يعني النصر : وجامع القول في ذلك أن الكتب السبائية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغي والرشاد ، والحلال والحرام ، وعلى ما يحصل نوراً في القلوب وهداية وخوفاً وإنابة وحثية ، ولهذا قال ﴿ الفرقان وضياءً وذكرًا للمتقين ﴾ أي تذكيراً لهم وعظة ، ثم وصفهم فقال ﴿ الذي يخشون ربهم بالغيب ﴾ كقوله ﴿ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾ . وقوله ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ ﴿ وهم من الساعة مشفقون ﴾ أي خائفون وجلون ، ثم قال تعالى : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ يعني القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ﴿ أفأنتم له منكرون ﴾ أي افتنكرونه وهو في غاية الجلاء والظهور ؟ .

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ حَا-

عَكَفُونَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا نَاهُوا عَنِ الدِّينِ وَأَوَّلُوا عَلَيْهِمْ وَأَوَّلُوا آلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَهَلْ لَنَا دِينٌ إِلَّا أَنْ تَقُولَ مَا نَقُولُ وَتَكْفُرَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا لَقَدْ كُنْتُمْ أَتَمَّرْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْكُمْ فِي شَكٍّ فَمَا جَزَاءُ الْمُتَمَّرِينَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا لَقَدْ كُنْتُمْ أَتَمَّرْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْكُمْ فِي شَكٍّ فَمَا جَزَاءُ الْمُتَمَّرِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا لَقَدْ كُنْتُمْ أَتَمَّرْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْكُمْ فِي شَكٍّ فَمَا جَزَاءُ الْمُتَمَّرِينَ ﴿٦٠﴾ قَالُوا لَقَدْ كُنْتُمْ أَتَمَّرْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْكُمْ فِي شَكٍّ فَمَا جَزَاءُ الْمُتَمَّرِينَ ﴿٦١﴾ قَالُوا لَقَدْ كُنْتُمْ أَتَمَّرْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْكُمْ فِي شَكٍّ فَمَا جَزَاءُ الْمُتَمَّرِينَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا لَقَدْ كُنْتُمْ أَتَمَّرْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْكُمْ فِي شَكٍّ فَمَا جَزَاءُ الْمُتَمَّرِينَ ﴿٦٣﴾

الشَّاهِدِينَ ﴿٦٤﴾

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشده من قبل ، أي من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه ، كما قال تعالى : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ وما يذكر من الأخبار عنه في إدخال أبيه له في السرب وهو رضيع ، وأنه خرج بعد أيام فنظر إلى الكوكب والمخلوقات فتبصر فيها ، وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم فعاتبها أحاديث بني إسرائيل ، فما وافق منها الحق ، مما بأيدينا عن المعصوم ، قبلناه لموافقته الصحيح ، وما خالف شيئاً من ذلك رددناه ، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لانصدقه ولا نكذبه بل نجعله وفقاً ، وما كان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف في روايته ، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه ولا حاصل له مما يتفجع به في الدين ، ولو كانت فائدته تعود على المكلفين في دينهم لبيتته هذه الشريعة الكاملة الشاملة ، والذي نسلكه في هذا التفسير الاعراض عن كثير من الاحاديث الاسرائيلية لما فيها من تضييع الزمان ، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم ، فانهم لانفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها ، كما حرره الائمة الحفاظ المتفقون من هذه الامة . والمقصود ههنا ان الله تعالى اخبر أنه قد آتى إبراهيم رشده من قبل ، أي من قبل ذلك .

وقوله ﴿ وكنا به عالمين ﴾ أي وكان أهلاً لذلك ؛ ثم قال ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ هذا هو الرشد الذي أوتيته من صغره الانكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله عز وجل ، فقال ﴿ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ أي معتكفون على عبادتها . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن محمد الصباح ، حدثنا أبو معاوية الضري ، حدثنا سعيد بن طريف عن الأصمغ بن نباتة قال : مر علي رضي الله عنه على قوم يلعبون بالشطرنج ، فقال : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ، لأن يس أحدكم جرأ حتى يطفأ خبر له من أن يمسه ﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ لم يكن لهم حجة سوى صنيع آباؤهم الضلال ، ولهذا قال ﴿ لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾ أي الكلام مع آباؤكم الذي احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم ، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم ، فلما سفه أحلامهم وضلل آباءهم واحترف آهنتهم ﴿ قالوا أجتنتنا بالحق أم أنت من اللاعين ﴾ يقولون : هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعبا أم محقا فيه ، فإننا لم نسمع به قبلك ﴿ قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن ﴾ أي ربكم الذي لا إله غيره ، وهو الذي خلق السموات والأرض وما حوت من المخلوقات الذي ابتداء خلقهن ، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿ وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ أي وأنا أشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه .

وَتَأْتِيهِمْ آيَاتُ رَبِّهِمْ فَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كِبْرَهُمْ لَعَلَّهُمْ لِيَرجِعُونَ ﴿٦٦﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَدْعُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٨﴾ قَالُوا قَاتُوا بِهِ عَلَى عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٧٠﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَظُنُّونَ ﴿٧١﴾

ثم أقسم الخليل قسماً أسعده بعض قومه ليكدن أصنامهم ، أي ليحرصن على أذاهم وتكسبرهم بعد أن يولوا مذبرين ، أي إلى عيدهم ، وكان لهم عيد يخرجون إليه ، قال السدي : لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه : يا بني لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا ، فخرج معهم ، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض ، وقال : إني سقيم فاجعلوا يبرون عليه وهو صريع فيقولون : مه ، فيقول : إني سقيم ، فلما جاز عامتهم وبقي ضعفاؤهم قال ﴿ تأله لا يكدن أصنامكم ﴾ فسمعه أولئك . وقال ابن إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله قال : لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مروا

عليه ، فقالوا : يا إبراهيم ألا تخرج معنا ؟ قال : إني سقيم ، وقد كان بالأمس ، قال ﴿تالله لأكيدين أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾ فسمعه ناس منهم .

وقوله ﴿فجعلهم جذاذا﴾ أي حطاماً كسرهما كلها ، إلا كبيراً لهم يعني إلا الصنم الكبير عندهم ، كنا قال ﴿فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾ . وقوله ﴿لعلهم إليه يرجعون﴾ ذكروا أنه وضع القدم في يد كبيرهم لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه ، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها ﴿قالوا من فعل هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين﴾ أي حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والاذلال الدال على عدم إلهيتها وعلى سخافة عقول عابديها ﴿قالوا من فعل هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين﴾ أي في صنيعه هذا ، ﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ أي قال من سمعه يخلف إنه ليكيدهم : سمعنا فتى أي شاباً ، يذكرهم يقال له إبراهيم . قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عوف ، حدثنا سعيد بن منصور ، حدثنا جرير بن عبد الحميد عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس قال : ما بعث الله نبياً إلا شاباً ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب ، وتلا هذه الآية ﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ .

وقوله ﴿قالوا فاتوا به على أعين الناس﴾ أي على رؤوس الأشهاد في الملا الأكبر بحضرة الناس كلهم ، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام ان يبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام . التي لاتدفع عن نفسها ضرباً ، ولا تمكك لها نصراً ، فكيف يطلب منها شيء من ذلك ؟ ﴿قالوا أأنت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم ؟ قال بل فعله كبيرهم هذا﴾ يعني الذي تركه لم يكسره ﴿فأسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون ، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جاد .

وفي الصحيحين من حديث هشام بن حسان عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله قال وإن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث : اثنتان في ذات الله قوله ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ ، وقوله ﴿إني سقيم﴾ - قال - وبيننا وهو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة ، إذ نزل منزلاً فأتى الجبار رجل فقال : إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس ، فأرسل إليه فجاء ، فقال : ما هذه المرأة منك ؟ قال : أختي . قال : فاذهب فأرسل بها إلي ، فانطلق إلى سارة فقال : إن هذا الجبار قد سألني عنك ، فأخبرته أنك أختي ، فلا تكذبيني عنده ، فانك أختي في كتاب الله ، وإنه ليس في الأرض مسلم غيبي وغيرك ، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي ، فلما أن دخلت عليه فرأها أهوى إليها فتناولها فأخذ أخذاً شديداً ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت له ، فأرسل فأهوى إليها ، فتناولها فأخذ بثملها أو أشد ، ففعل ذلك الثالثة ، فأخذ فذكر مثل المرتين الأولين ، فقال : ادعي الله فلا أضرك ، فدعت له فأرسل ، ثم دعا أدنى حجابيه فقال : إنك لم تأتني بإسنان ، ولكنك أتيتني بشيطان ، أخرجها وأعطها هاجر . فأخرجت وأعطيت هاجر فأقبلت ، فلما أحس إبراهيم بمجيئها ، انفتل من صلاته ، وقال : مهيم . قالت : كفى الله كيد الكافر الفاجر وأخذمني هاجر . قال محمد بن سيرين : فكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال : تلك أمكم يا بني ماء السماء .

فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ

﴿١٦﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿١٧﴾ أَلَمْ يَكُ لَكُمْ آيَاتُ اللَّهِ فَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ

اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال ﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾ أي بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لأنفسهم ، فقالوا ﴿إنكم أنتم الظالمون﴾ أي في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها ، ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾ أي ثم اطرقوا في الأرض فقالوا ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ . قال قتادة : أدركت القوم حيرة سوء ، فقالوا ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ . وقال السدي ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾ أي في الفتنة . وقال ابن زيد : أي في الرأي ، وقول قتادة أظهر في المعنى ، لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزاً ، ولهذا قالوا له ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ فكيف تقول لنا سلوهم إن كانوا ينطقون ، وأنت تعلم أنها لاتنطق ، فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك ﴿أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم﴾ أي إذا كانت لا تنطق وهي لاتنفع ولا تضر ، فلم تعبدونها من دون الله ؟ ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر . فأقام عليهم الحجة والزمهم بها ، ولهذا قال تعالى : ﴿وتلك حجبتنا آتينها إبراهيم عى قومه﴾ الآية .

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلَ الْهَتَكِمْ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾

لما دحضت حججهم وبان عجزهم وظهر الحق واندفع الباطل عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم ، فقالوا : ﴿حرقوه وانصروا الهتكم إن كنتم فاعلين﴾ ، فجمعوا حطباً كثيراً جداً ، قال السدي : حتى إن كانت المرأة تمرض فتندثر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم ، ثم جعلوه في جورة من الأرض وأضرموها ناراً ، فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع لم توقد ناراً قط مثلها ، وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد . قال شعيب الجبائي ، اسمه هيزن : فحسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، فلما ألقوه قال : حسبي الله ونعم الوكيل ، كما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال : حسبي الله ونعم الوكيل ، قالها إبراهيم حين ألقى في النار ، وقالها محمد عليها السلام حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . وروى الحافظ أبو يعلى : حدثنا ابن هشام ، حدثنا إسحاق بن سليمان عن أبي جعفر ، عن عاصم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ولما ألقى إبراهيم عليه السلام في النار ، قال : اللهم إنك في السماء واحد ، وأنا في الأرض واحد أعبدك ، ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال : لا إله إلا أنت ، سبحانك لك الحمد ، ولك الملك لا شريك لك ، وقال شعيب الجبائي : كان عمره إذ ذاك ست عشرة سنة ، فالله أعلم ، وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو في الهواء فقال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، وأما من الله فبلى . وقال سعيد بن جبيرة - ويروى عن ابن عباس أيضاً - قال : لما ألقى إبراهيم ، جعل خازن المطر يقول : متى أومر بالمطر فأرسله ؟ قال : فكان أمر الله أسرع من أمره ، قال الله ﴿يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ قال : لم يبق نار في الأرض إلا طفتت . وقال كعب الأحبار : لم ينتفع أحد يومئذ بنار ، ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه .

وقال الثوري عن الأعمش ، عن شيخ ، عن علي بن أبي طالب ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ قال : لا تضريه . وقال ابن عباس وأبو العالية : لولا أن الله عز وجل قال : وسلاماً لأنى إبراهيم بردها ، وقال جوير عن الضحاك : كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ، قالوا : صنعوا له حظيرة من حطب جزل ، وأشعلوا فيه النار من كل جانب ، فأصبح ولم يصبه منها شيء حتى أخذها الله ، قال : ويذكرون أن جبريل كان معه يمسح وجهه من العرق ، فلم يصبه منها شيء غير ذلك . وقال السدي : كان معه فيها ملك الظل .

وقال علي بن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا مهرا ، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن المنهال بن عمرو قال : أخبرت أن إبراهيم ألقى في النار ، قال : فكان فيها إما خمسين وإما أربعين ، قال : ما كنت أياماً وليالي قط أطيب عيشاً إذ كنت فيها وددت أن عيشي وحياتي كلها مثل عيشي إذ كنت فيها . وقال أبو زرعة بن عمرو بن جرير عن أبي هريرة قال : إن أحسن شيء ، قال أبو إبراهيم لما رفع عنه الطبق وهو في النار : وجده يرشح جبينه ، قال عند ذلك : نعم الرب ربك يا إبراهيم . وقال قتادة : لم يأت يومئذ دابة إلا اطفأت عنه النار ، لا الوزغ ؛ وقال الزهري : أمر النبي ﷺ بقتله ، وسماه فويسقا . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عبيد الله بن أخي بن وهب ، حدثني عمي ، حدثنا جرير بن حازم أن نافعاً حدثه قال : حدثني مولاة الفاكه بن المغيرة المخزومي قالت : دخلت على عائشة ، فرأيت في بيتها رجلاً ، فقلت : يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح ؟ فقالت : تقتل به هذه الأوزاغ ، إن رسول الله ﷺ قال «إن إبراهيم حين ألقى في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفىء النار غير الوزغ ، فانه كان يتفخ على إبراهيم ، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله . وقوله ﴿وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾ أي المغلوبين الأسفلين ، لأنهم أرادوا بني الله كيداً ، فكادهم الله ونجاه من النار ، فغلبوا هنالك ، وقال عطية العوفي : لما ألقى إبراهيم في النار ، جاء ملكهم لينظر إليه ، فطارت شرارة فوقعت على إبهامه ، فأحرقته مثل الصوفة .

وَيَجْنِسُهُ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا

صَالِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيسَاءَ الزَّكَاةِ
وَكَانُوا لَنَا عِيدِينَ ﴿٧٧﴾ وَلَوْ طَاءَ آيَاتُنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَجِئْتَهُ مِنَ الْقُرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْغَيْبَاتِ إِنَّهُمْ
كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَنَسِيقِينَ ﴿٧٦﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه سلمه الله من نار قومه ، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً الى بلاد الشام ، الى الارض المقدسة منها . كما قال الربيع بن انس عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب في قوله ﴿إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾ قال : الشام وما من ماء عذب إلا يخرج من تحت الصخرة ، وكذا قال ابو العالية ايضاً وقال قتادة : كان بأرض العراق ، فأنجاه الله إلى الشام ، وكان يقال للشام أعقار دار الهجرة ، وما نقص من الأرض زيد في الشام ، وما نقص من الشام زيد في فلسطين ، وكان يقال : هي أرض المحشر والمنشر ، وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام ، وبها يهلك المسيح الدجال .

وقال كعب الأحبار في قوله ﴿إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾ الى حران . وقال السدي : انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام ، فلقي إبراهيم سارة وهي ابنة ملك حران وقد طعنت على قومها في دينهم ، ف تزوجها على ان يفر بها ، رواه ابن جرير ، وهو غريب ، والمشهور أنها ابنة عمه ، وانه خرج بها مهاجراً من بلاده . وقال العوفي عن ابن عباس : إلى مكة ، الا تسمع الى قوله ﴿ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً﴾ .

وقوله ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة﴾ قال عطاء ومجاهد وعطية وقال ابن عباس وقاتدة والحكم بن عيينة : النافلة ولد الولد ، يعني ان يعقوب ولد إسحاق ، كما قال ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ . وقال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم : سأل واحداً ، فقال ﴿رب هب لي من الصالحين﴾ فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة ، ﴿وكلا جعلنا صالحين﴾ اي الجميع اهل خير وصلاح ، ﴿وجعلناهم أئمة﴾ اي يقتدى بهم ، ﴿يهدون بأمرنا﴾ اي يدعون الى الله بإذنه ، ولهذا قال ﴿وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ من باب عطف الخاص على العام ، ﴿وكانوا لنا عابدين﴾ اي فاعلين لما يأمرون الناس به ، ثم عطف بذكر لوط ، وهو لوط بن هاران بن آزر ، كان قد آمن بإبراهيم عليه السلام واتبعه وهاجر معه ، كما قال تعالى : ﴿فأمن له لوط وقال اني مهاجر الى ربى﴾ فاتاه الله حكماً وعلماً ، وأوحى إليه وجعله نبياً وبعثه الى سدوم واعمالها ، فخالقوه وكذبوه ، فأهلكهم الله ودمر عليهم ، كما قص خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز ، ولهذا قال ﴿ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين﴾ وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين﴾ .

وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْتَهُ مِنَ الْقَوْمِ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا على قومه لما كذبوه ﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر﴾ وقال نوح ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجراً كفاراً﴾ ولهذا قال ههنا ﴿إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه واهله﴾ أي الذين آمنوا به ، كما قال ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل﴾ . وقوله ﴿من الكرب العظيم﴾ أي من الشدة والتكذيب والأذى ، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم الى الله عز وجل فلم يؤمن به منهم الا القليل ، وكانوا يتصدون لأذاه ويتواصون قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل على خلافه . وقوله ﴿ونصرناه من القوم﴾ اي ونجيناه وخلصناه منتصراً من القوم ﴿الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقتناهم أجمعين﴾ أي أهلكهم الله بعامته ، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحد ، كما دعا عليهم نبينهم .

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَمْحُكُمَا فِي الْخَرْتِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾
 فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلَّاءَ آيِنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحُونَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾
 وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ
 إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَتْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَقْوُصُوتُ لَهُمْ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا
 دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾

قال ابن إسحاق عن مرة عن ابن مسعود : كان ذلك الحرث كرمًا قد تددت عناقيدته ، وكذا قال شريح . وقال ابن عباس : النفس الرعي . وقال شريح والزهري وقتادة : النفس لا يكون إلا بالليل ، زاد قتادة : والهمل بالنهار . وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب وهارون بن إدريس الأصم ، قالا حدثنا المحاربي عن أشعث عن أبي إسحاق عن مرة عن ابن مسعود في قوله ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفثت فيه غنم القوم﴾ قال : كرم قد أنبتت عناقيدته فأفسدته ، قال : فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم ، فقال سليمان : غير هذا يا نبي الله : قال : وما ذاك ؟ قال : تدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ، ودفعت الغنم إلى صاحبها ؛ فذلك قوله ﴿ففهمنها سليمان﴾ وكذا روى العوفي عن ابن عباس .

وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد : حدثني خليفة عن ابن عباس قال : قضى داود بالغنم لأصحاب الحرث فخرج الرعاة معهم الكلاب ، فقال لهم سليمان : كيف قضى بينكم ؟ فأخبروه ؛ فقال : لو وليت أمركم لقضيت بغير هذا ، فأخبر بذلك داود ، فدعاه فقال : كيف تقضي بينهم ؟ قال : أدفع الغنم إلى صاحب الحرث ، فيكون له أولادها وألبانها وسلاؤها ومنافعها ، ويبيد أصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم ، فإذا بلغ الحرث الذي كان عليه ، أخذ أصحاب الحرث وردوا الغنم إلى أصحابها . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا خديج عن أبي إسحاق عن مرة عن مسروق قال : الحرث الذي نفثت فيه غنم القوم ، إنما كان كرمًا فلم تدع فيه ورقة ولا عنقودا من عنب إلا أكلته ، فاتوا داود فأعطاهم رقابها ، فقال : سليمان لا بل تؤخذ الغنم فيعطاها أهل الكرم فيكون لهم لبنها ونفعها ويعطى أهل الغنم الكرم فيعمروه ويصلحوه حتى يعود كالذي كان ليلة نفثت فيه الغنم ، ثم يعطى أهل الغنم غنمهم ، وأهل الكرم كرمهم ، وهكذا قال شريح ومرة ومجاهد وقتادة وابن زيد وغير واحد .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن أبي زياد ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا إسماعيل عن عامر قال : جاء رجلان إلى شريح ، فقال أحدهما : إن شياه هذا قطعت غزلاً لي ، فقال شريح : نهاراً أم ليلاً ؟ فإن كان نهاراً فقد برىء صاحب الشياه ، وإن كان ليلاً فقد ضمن ؛ ثم قرأ ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث﴾ الآية ؛ وهذا الذي قاله شريح شبيه بما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه من حديث الليث بن سعد عن الزهري ، عن حرام بن سعد بن محبصة ، أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً فأفسدت فيه ، فقضى رسول الله ﷺ على أهل الحائط حفظها بالنهار ، وما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها ؛ وقد علل هذا الحديث وقد بسطنا الكلام عليه في كتاب الأحكام ، وبالله التوفيق .

وقوله ﴿ففهمنها سليمان وكلآ آيتنا حكماً وعلماً﴾ قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد عن حميد أن إياس بن معاوية لما استقضى آتاه الحسن فبكى ، فقال : ما يبكيك ؟ قال : يا أبا سعيد بلغني أن القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار ، ورجل مال به الهوى فهو في النار ، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة . فقال الحسن البصري : إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكماً يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم ، قال الله تعالى : ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفثت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين﴾ فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود ، ثم قال : - يعني الحسن - : إن الله اتخذ على الحكماء ثلاثاً : لا يشتروا به ثمنًا قليلاً ، ولا يتبعوا فيه الهوى ، ولا يتخشوا فيه أحداً ، ثم تلا ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ وقال ﴿فلا تخشوا الناس واخشوني﴾ وقال ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمنًا قليلاً﴾ قلت : أما الأنبياء عليهم السلام ، فكلهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل ، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف ،

وأما من سواهم فقد ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص أنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا اجتهد الحاكم فأصاب ، فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ ، فله أجر » فهذا الحديث يردد نصاً ما توهمه إياس من أن القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار ، والله أعلم .

وفي السنن : القضاة ثلاثة : قاض في الجنة ، وقاضيان في النار ، رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة ، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى خلافه فهو في النار ، وقريب من هذه القصة المذكورة في القرآن ما رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال : حدثنا علي بن حفص ، أخبرنا ورقاء عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « بيننا امرأتان معهما ابنان لهما ، إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين فتحا كمتا إلى داود ، فقضى به للكبرى ، فخرجتا فدعاهما سليمان فقال : هاتوا السكين أشقه بينكما : فقالت الصغرى : يرحمك الله هو ابنا لا تشقه ، فقضى به للصغرى » وأخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما ، وبوب عليه النسائي في كتاب القضاء .

[باب الحاكم يوهم خلاف الحكم ليستعلم الحق]

وهكذا القصة التي أوردها الحافظ أبو القاسم بن عساكر في ترجمة سليمان عليه السلام من تاريخه من طريق الحسن بن سفيان عن صفوان بن صالح ، عن الوليد بن مسلم عن سعيد بن بشير عن قتادة عن مجاهد ، عن ابن عباس ، فذكر قصة مطولة ، ملخصها : أن امرأة حسناء في زمان بني إسرائيل ، راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم ، فامتنعت على كل منهم ، فانفقوا فيما بينهم عليها ؛ فشهدوا عليها عند داود عليه السلام أنها مكنت من نفسها كلباً لها قد عودته ذلك منها ، فأمر برجمها ، فلما كان عشية ذلك اليوم جلس سليمان واجتمع معه ولدان مثله ، فانتصب حاكماً وتزيا أربعة منهم بزى أولئك ، وآخر بزى المرأة ، وشهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلباً ، فقال سليمان فرقوا بينهم ، فسأل أولهم ما كان لون الكلب ؟ فقال أسود ، فعزله واستدعى الآخر فسأله عن لونه ، فقال : أحمر ؛ وقال الآخر : أغيش ، وقال الآخر : أبيض ؛ فأمر عند ذلك بقتلهم ؛ فحكى ذلك لداود عليه السلام فاستدعى من فوره بأولئك الأربعة فسألهم متفرقين عن لون ذلك الكلب ، فاختلفوا عليه فأمر بقتلهم .

وقوله ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ﴾ الآية ؛ وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور ، وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه ، وترد عليه الجبال تأويها ، ولهذا لما مر النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل وكان له صوت طيب جدا ، فوقفوا واستمعوا لقراءته ، وقال ﴿ لقد أوتي هذا زمماراً من زمائر آل داود ﴾ قال : يا رسول الله لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيراً . وقال أبو عثمان النهدي : ما سمعت صوت صنع ولا يربط ولا زممار مثل صوت أبي موسى رضي الله عنه ؛ ومع هذا قال عليه الصلاة والسلام « لقد أوتي زمماراً من زمائر آل داود » .

وقوله ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لنحسننكم من بأسكم ﴾ يعني صنعة اللدروع . قال قتادة : إنما كانت اللدروع قبله صفائح : وهو أول من سردها حلقة ، كما قال تعالى ﴿ وألنا له الحديد أن يعمل سبائحاً و قددر في السرد ﴾ أي لا توسع الحلقة فتتقن المسار ولا تغلظ المسار فتفقد الحلقة ، ولهذا قال ﴿ لتحصنكم من بأسكم ﴾ يعني في القتال ﴿ فهل أنتم شاكرون ﴾ أي نعم الله عليكم لما ألهم به عبده داود ، فعلمه ذلك من أجلكم . وقوله ﴿ وللسليمان الريح عاصفة ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح العاصفة ﴿ تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها ﴾ يعني أرض الشام ﴿ وكنا بكل شيء عالمين ﴾ وذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل والجمال والحياض والجند ثم يأمر الريح أن تحمله ؛ فتدخل تحته ثم تحمله وترفعه وتسري به ، وتظله الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض ، فينزل وتوضع آلاته وحشمه ، قال الله تعالى : ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ﴾ وقال تعالى : ﴿ غدوها شهر ورواحها شهر ﴾ .

قال ابن أبي حاتم : ذكر عن سفيان بن عيينة عن أبي ستان عن سعيد بن جبيرة قال : كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي ، فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس ، ثم يجلس وراءهم مؤمنو الجن ، ثم يأمر الطير فتنزلهم ، ثم يأمر الريح فتحملهم ﷻ . وقال عبد الله بن عبيد بن عمير : كان سليمان يأمر الريح فتجتمع كالطود العظيم كالجليل ، ثم يأمر بفراشه فيوضع على أعلى مكان منها ، ثم يدعو بفرس من ذوات الأجنحة فيرتفع حتى يصعد على فراشه ، ثم يأمر الريح فترتفع به كل شرف دون السماء ، وهو مططى رأسه ما يلتفت يمينا ولا شمالاً ، تعظيماً لله عز وجل ، وشكراً لما يعلم من صغرها هو فيه في ملك الله عز وجل ، حتى تضعه الريح حيث شاء أن تضعه .

وقوله ﴿ ومن الشياطين من يغوصون له ﴾ أي في الماء يستخرجون اللآلئ والجواهر وغير ذلك ، ﴿ ويعملون عملاً دون ذلك ﴾ أي غير ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴾ . وقوله ﴿ وكنا

لهم حافظين ﴿ أي يحرسه الله ان يناله أحد من الشياطين بسوء ، بل كل في قبضته وتمت قهره ، لا يتجاسر أحد منهم على الدنو اليه والقرب منه ، بل هو يحكم فيهم إن شاء أطلق وإن شاء حبس منهم من يشاء ، ولهذا قال ﴿ وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴾ .

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَعَآئِنَهُ أَهْلَهُ وَمِنْهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ، ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده ، وذلك انه كان له من الدواب والأنعام والحراث شيء كثير وأولاد كثير ومنازل مرضية ، فابتلي في ذلك كله وذهب عن آخره ، ثم ابتلي في جسده ، يقال : بالجذام في سائر بدنه ، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه ، يذكر بها الله عز وجل ، حتى عافه الجليس ، وافرد في ناحية من البلد ، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته كانت تقوم بأمره ، ويقال : إنها احتاجت ، فصارت تخدم الناس من أجله ، وقد قال النبي ﷺ « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأملئ فالأملئ » وفي الحديث الآخر « يتلى الرجل على قدر دينه ، فان كان في دينه صلابة زيد في بلائه » وقد كان نبي الله أيوب عليه السلام غاية في الصبر ، وبه يضرب المثل في ذلك . وقال يزيد بن مسيرة : لما ابتلى الله أيوب عليه السلام بذهاب الأهل والمال والولد ، ولم يبق شيء له أحسن الذكر ، ثم قال : أحمدك رب الأرباب ، الذي أحسنت إلي ، أعطيتني المال والولد فلم يبق من قلبي شعبة إلا قد دخله ذلك ، فأخذت ذلك كله مني ، وفرغت قلبي ، فليس يحول بيني وبينك شيء ، لو يعلم عدوي إبليس بالذي صنعت حسدني . قال : فلقني إبليس من ذلك منكراً . قال : وقال أيوب عليه السلام : يارب انك أعطيتني المال والولد ، فلم يبق علي بابي أحد يشكوني لظلم ظلمته ، وأنت تعلم ذلك ، وأنه كان يوطأ لي الفراش فتركها ، واقول لنفسي يا نفس إنك لم تخلفي لوطء الفراش ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك . رواه ابن أبي حاتم .

وقد روي عن وهب بن منبه في خبره قصة طويلة ، ساقها ابن جرير وابن أبي حاتم بالسند عنه ، وذكرها غير واحد من متأخري المفسرين ، وفيها غرابة تركناها لحال الطول ، وقد روي أنه مكث في البلاء مدة طويلة ثم اختلفوا في السبب المهيح له على هذا الدعاء ؛ فقال الحسن وقتادة : ابتلى أيوب عليه السلام سبع سنين وأشهرًا ، ملقى على كناسة بني إسرائيل ، تختلف الدواب في جسده ، ففرج الله عنه وأعظم له الأجر وأحسن عليه الشفاء . وقال وهب بن منبه : مكث في البلاء ثلاث سنين ، لا يزيد ولا يتقص وقال السدي : تساقط لحم أيوب حتى لم يبق إلا العصب والعظام ، فكانت امرأته تقوم عليه وتأتيه بالرماد يكون فيه ، فقالت له امرأته لما طال وجعه : يا أيوب لو دعوت ربك يفرج عنك ؛ فقال : قد عشت سبعين سنة صحيحًا ، فهو قليل لله أن اصبر له سبعين سنة ، فخرجت فكانت تعمل للناس بالأجر وتأتيه بما تصيب فتطعمه ، وإن إبليس انطلق إلى رجلين من أهل فلسطين كانا صديقين له وأخوين ، فأتاهما فقال : أخوك يا أيوب أصابه من البلاء كذا وكذا ، فأتياه وزوراه ، واحملا معكما من خمر أرضكما ، فانه إن شرب منه برىء ، فأتياه فلما نظرا اليه بكيا ، فقال : من أنتما ؟ فقالا : نحن فلان وفلان ، فرحب بهما وقال : مرحبًا بمن لا يجفوني عند البلاء ، فقالا : يا أيوب لعلك كنت تسر شيئًا وتظهر غيره ، فلذلك ابتلاك الله ؟ فرفع رأسه الى السماء فقال : هو يعلم ، ما أسررت شيئًا أظهرت غيره ، ولكن ربي ابتلاني لينظر أأصبر أم أجزع . فقالا له : يا أيوب اشرب من خمرنا ، فانك إن شربت منه برأت . قال : فغضب ، وقال : جاءكم الخبيث فأمركم بهذا ؟ كلامكم وطعامكم وشرابكم علي حرام ، فقاما من عنده ، وخرجت امرأته تعمل للناس ، فخبزت لأهل بيت لهم صبي ، فجعلت لهم قرصًا ، وكان ابنهم نائمًا ، فكرهوا أن يوقظوه فوهوه لها ، فأتت به إلى أيوب فأنكره وقال : ما كنت تأتيني بهذا ، فما بالك اليوم ؟ فأخبرته الخبر ، قال : فلعل الصبي قد استيقظ فطلب القرص فلم يجده فهو يبكي على أهله ، فانطلقني به إليه ، فأقبلت حتى بلغت درجة القوم ، فطاحتها شاة لهم ، فقالت : تمس أيوب الخطاء ، فلما صعدت وجدت الصبي قد استيقظ وهو يطلب القرص ويبكي على أهله لا يقبل منهم شيئًا غيره ، فقالت : رحمه الله ، يعني أيوب ، فدفعت اليه القرص ورجعت ، ثم ان إبليس أتاه في صورة طيب ، فقال لها : إن زوجك قد طال سقمه ، فإن أراد أن يبرأ فليأخذ ذبابا فليذبحه باسم صنم بني فلان ، فانه يبرأ ويتوب بعد ذلك ؛ فقالت ذلك لأيوب ، فقال : قد أتاك الخبيث ، لله علي ان برأت أن أجلدك مائة جلده ، فخرجت تسعى عليه ، فحظر عنها الرزق ، فجعلت لا تأتي أهل بيت فيريدونها ، فلما اشتد عليها ذلك وخافت على أيوب الجوع حلققت من شعرها

قرنا فباعته من صبية من بنات الأشراف ، فأعطوها طعاماً طيباً كثيراً ، فأتت به أيوب ، فلما رآه أنكروه وقال : من أين لك هذا ؟ قالت : عملت لأناس فأطعموني ، فأكل منه ، فلما كان الغد خرجت فطلبت أن تعمل فلم تجد ، فحلقت أيضاً قرنا فباعته من تلك الجارية ، فأعطوها أيضاً من ذلك الطعام ، فأتت به أيوب فقال : والله لا أطعمه حتى أعلم من أين هو ، فوضعت فخارها ، فلما رأى رأسها مخلوقاً جزع جزعاً شديداً ، فعند ذلك دعا الله عز وجل ، فقال ﴿ رب اني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، حدثنا أبو عمران الجوني عن نوف البكالي أن الشيطان الذي عرج في أيوب كان يقال له مبسوط ، قال : وكانت امرأة أيوب تقول : ادع الله فيشفيك ، فجعل لا يدعو حتى مر به نفر من بني إسرائيل ، فقال بعضهم لبعض : ما أصابه إلا بذنوب عظيم أصابه ، فعند ذلك قال ﴿ رب اني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ . وحدثنا أبي ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا جرير بن حازم عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : كان لأيوب عليه السلام اخوان ، فجاء يوماً فلم يستطيعوا ان يدنوا منه من ريحه ، فقاما من بعيد ، فقال احدهما للآخر . لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا ، فجزع أيوب من قولها جزعاً لم يجزع من شيء قط ؛ فقال : اللهم ان كنت تعلم اني لم أبت ليلة قط شبهان وأنا اعلم مكان جائع ، فصدقني ، فصدق من السماء وهما يسمعان ، ثم قال : اللهم ان كنت تعلم اني لم يكن لي قميصان قط ، وأنا اعلم مكان عار ، فصدقني ، فصدق من السماء وهما يسمعان ، ثم قال : اللهم بعزتك ، ثم خر ساجداً ، فقال : اللهم بعزتك لا ارفع رأسي ابداً حتى تكشف عني ، فما رفع رأسه حتى كشف عنه .

وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر مرفوعاً بنحو هذا ، فقال : اخبرنا يونس بن عبد الأعلى ، اخبرنا ابن وهب ، اخبرني نافع بن يزيد عن عقيل عن الزهري عن انس بن مالك ان رسول الله ﷺ قال « ان نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من اخوانه كانا من أخص إخوانه له ، كانا يغدوان اليه ويروحان ، فقال احدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين ؛ فقال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : منذ ثماني عشرة سنة لم يرعاه الله فيكشف ما به ، فلما راحا اليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب عليه السلام : ما أدري ما تقول ، غير ان الله عز وجل يعلم اني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكرا الله ، فأرجع الى بيتي فأكفر عنها كراهية أن يذكر الله إلا في حق ، قال : وكان يخرج في حاجته فاذا قضاها أمسكن امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم ابطت عليه ، فأوحى الله الى أيوب في مكانه ان « اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب » رفع هذا الحديث غريب جدا . وروى ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، اخبرنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : وألبسه الله حلة من الجنة ، فتنحى أيوب فجلس في ناحية ، وجاءت امرأته فلم تعرفه ، فقالت : يا عبد الله اين ذهب هذا البئيل الذي كان ههنا لعل الكلاب ذهبت به او الذئاب ، فجعلت تكلمه ساعة . فقال : ويحك أنا أيوب . قالت : أتسخر مني يا عبد الله ؟ فقال : ويحك انا أيوب قد رد الله علي جسدي ، وبه قال ابن عباس ، ورد عليه ماله وولده عياناً ومثلهم معهم . وقال وهب بن منبه : أوحى الله الى أيوب قد رددت عليك اهلك ومالك ، ومثلهم معهم . فاغتسل بهذا الماء فان فيه شفاءك وقرب عن صحابتك قرباناً ، واستغفر لهم فانهم قد عصوني فيك . رواه ابن أبي حاتم .

وقال أيضاً : حدثنا ابو زرعة ، حدثنا عمرو بن مرزوق ، حدثنا همام عن قتادة عن النضر بن انس عن بشر بن نهيك عن ابي هريرة عن النبي ﷺ قال « لما عافى الله أيوب أمطر عليه جراداً من ذهب ، فجعل يأخذ منه بيده ويعمله في ثوبه ، قال : فقيل له : يا أيوب أما تشيع ؟ قال : يارب ومن يشيع من رحمتك » أصله في الصحيحين وسيأتي في موضع آخر .

وقوله ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ قد تقدم عن ابن عباس انه قال : ردوا عليه بأعيانهم ، وكذا رواه العوفي عن ابن عباس أيضاً ، وروي مثله عن ابن مسعود ومجاهد ، وبه قال الحسن وقتادة ، وقد زعم بعضهم ان اسم زوجته رحمة ، فإن كان أخذ ذلك من سياق الآية فقد ابعد النجعة ، وإن كان أخذه من نقل اهل الكتاب وصح ذلك عنهم ، فهو مما لا يصدق ولا يكذب ، وقد سهاها ابن عساكر في تاريخه : رحمه الله تعالى : قال : ويقال اسمها ليا بنت ميثان بن يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم ، قال : ويقال ليا بنت يعقوب عليه السلام زوجة أيوب كانت معه بأرض الثنية ، وقال مجاهد : قيل له : يا أيوب ان أهلك لك في الجنة ، فإن شئت أتيناك بهم ، وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم ؟ قال : لا بل اتركهم في الجنة ، فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا . وقال حماد بن زيد عن ابي عمران

الجوني عن نوف البكالي قال : اوتي أجرهم في الآخرة وأعطي مثلهم في الدنيا . قال : فحدثت به مطرفاً ، فقال : ما عرفت وجهها قبل اليوم ، وكذا روي عن قتادة والسدي وغير واحد من السلف ، والله أعلم . وقوله ﴿رحمة من عندنا﴾ أي فعلنا به ذلك رحمة من الله به ﴿وذكرى للعابدين﴾ أي وجعلناه في ذلك قدوة لثلاث يظن أهل البلاء انما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا ، وليتأسوا به في الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما يشاء ، وله الحكمة البالغة في ذلك .

وَأَسْمِعِمْ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكُفْلِ كُلُّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾

وأما اسماعيل فالمراد به ابن ابراهيم الخليل عليها السلام ، وقد تقدم ذكره في سورة مريم ، وكذا إدريس عليه السلام ، وأما ذو الكفل ، فالظاهر من السياق انه ما قرن مع الأنبياء إلا وهوني ، وقال آخرون : إنما كان رجلاً صالحاً ، وكان ملكاً عادلاً ، وحكماً مقسطاً ، وتوقف ابن جرير في ذلك ، فالله اعلم . قال ابن جريج عن مجاهد في قوله ﴿وذا الكفل﴾ قال : رجل صالح غير نبي ، تكفل لئبي قومه أن يكفيه امر قومه ويقيهم له ويقضي بينهم بالعدل ، ففعل ذلك ، فسمي ذا الكفل ، وكذا روى ابن أبي نجيج عن مجاهد أيضاً .

وروى ابن جرير : حدثنا محمد بن المثني ، حدثنا عفان ، حدثنا وهيب ، حدثنا داود عن مجاهد قال : لما كبر اليسع قال : لو اني استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم في حياتي حتى انظر كيف يفعل ، فجمع الناس فقال : من يتقبل مني بثلاث استخلفه : فيصوم النهار ، ويقوم الليل ، ولا يغضب ؟ قال : فقام رجل تزديه العين فقال : انا ، فقال : أنت تصوم النهار وتقوم الليل ولا تغضب ؟ قال : نعم ، قال : فرده ذلك اليوم وقال مثلها في اليوم الآخر ، فسكت الناس ، وقام ذلك الرجل فقال : انا ، فاستخلفه . قال : فجعل إبليس يقول للشياطين : عليكم بفلان فأعياهم ذلك ، فقال : دعوني وإياه ، فأناه في صورة شيخ كبير فقير ، فأناه حين أخذ مضجعه للقائلة - وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النوم ، فدفق الباب ، فقال : من هذا ؟ قال : شيخ كبير مظلوم ، قال : فقام ففتح الباب ، فجعل يقص عليه ، فقال : ان بني وبين قومي خصومة ، وانهم ظلموني ، وفعلوا بي وفعلوا بي ، وجعل يطول عليه حتى حضر الرواح وذهبت القائلة ، فقال : إذا رحمت فأنني أخذ لك بحقك ، فانطلق وراح ، فكان في مجلسه ، فجعل ينظر هل يرى الشيخ فلم يره ، فقام يتبعه ، فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس ويتنظره فلا يراه ، فلما رجع الى القائلة فأخذ مضجعه ، اتاه فدفق الباب فقال : من هذا ؟ قال : الشيخ الكبير المظلوم ، ففتح له فقال : ألم اقل لك إذا قدمت فأنني ، قال : اهم اخبث قوم اذا عرفوا انك قاعد قالوا : نحن نعطيك حقك ، واذا قمت جحدوني ، قال : فانطلق ، فاذا رحمت فأنني ، قال : ففانته القائلة ، فراح فجعل ينتظره ولا يراه ، وشق عليه النعاس ؛ فقال لبعض اهله : لا تدع احداً يقرب هذا الباب حتى انام ، فاني قد شق علي النوم ، فلما كان تلك الساعة جاء فقال له الرجل : ورايك ، ورايك ، قال : اني قد اتيته امس وذكرت له امرى ، فقال : لا والله لقد امرنا ان لا ندع احداً يقربه ، فلما اعياه نظر فرأى كوة في البيت فتسور منها ، فإذا هو في البيت ، وإذا هو يدق الباب من داخل ، قال : واستيقظ الرجل ، فقال : يا فلان ألم أمرك ؟ قال : اما من قبلي والله فلم تؤت فانظر من اين اتيت ، قال ، فقام الى الباب فاذا هو معلق كما اغلقه ، وإذا الرجل معه في البيت فعرفه ، فقال : أعدو الله ؟ قال : نعم ، اعيبتني في كل شيء ففعلت ما ترى لأغضبك ، فسأه الله ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به . وهكذا رواه ابن ابي حاتم من حديث زهير بن اسحاق عن داود عن مجاهد بمثله .

وقال ابن ابي حاتم : حدثنا ابي ، حدثنا احمد بن يونس ، حدثنا ابو بكر بن عياش عن الأعمش عن مسلم قال : قال ابن عباس : كان قاض في بني اسرائيل فحضره الموت فقال : من يقوم مقامى على ان لا يغضب ؟ قال : فقال رجل : انا ، فسمي ذا الكفل ، قال : فكان ليله جميعاً يصلي ، ثم يصبح صائماً فيقضي بين الناس ، قال : وله ساعة يقيلها ، قال : فكان كذلك ، فأناه الشيطان عند نومه ، فقال له أصحابه : ما لك ؟ قال : إنسان مسكين له على رجل حق ، وقد غلبني عليه ، قالوا : كما أنت حتى يستيقظ ، قال : وهو فوق نائم ، قال : فجعل يصيح عمداً حتى يوقظه ، قال : فسمع ، فقال : ما لك ؟ قال : إنسان مسكين له على رجل حق ، قال : فاذهب فقل له يعطيك ، قال : قد أبى ، قال : اذهب أنت اليه ، قال : فذهب ثم جاء من الغد فقال : ما لك ؟ قال : ذهبت إليه فلم يرفع بكلامك رأساً . قال : اذهب إليه فقل له يعطيك حقك ، فذهب ثم جاء من الغد حين قال ، قال : فقال له أصحابه اخرج فعل الله بك تحيى كل يوم حين ينام لا تدعه ينام ، قال : فجعل يصيح من أجل اني إنسان مسكين لو كنت غنياً ، قال : فسمع أيضاً فقال : ما لك ؟

قال : ذهبت إليه فضربني ، قال : امش حتى يجيء معك ، قال : فهو ممسك بيده فلما رآه ذهب معه نثر يده منه فقر . وهكذا روي عن عبد الله بن الحارث ومحمد بن قيس وأبي حنيفة وغيرهم من السلف نحو هذه القصة ، والله أعلم . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو الجماهر ، أخبرنا سعيد بن بشير ، حدثنا قتادة عن كنانة بن الأحنس قال : سمعت الأشعري وهو يقول على هذا المنبر : ما كان ذو الكفل نبياً ولكن كان - يعني في بني إسرائيل - رجل صالح يصلي كل يوم مائة صلاة ، فتكفل له ذو الكفل من بعده ، فكان يصلي كل يوم مائة صلاة ، فسمي ذا الكفل ، وقد رواه ابن جرير من حديث عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال : قال أبو موسى الأشعري فذكره منقطعاً ، والله أعلم . وقد روى الإمام أحمد حديثاً غريباً فقال : حدثنا أسباط بن محمد ، حدثنا الأعمش عن عبد الله بن عبد الله عن سعد مولى طلحة عن ابن عمر قال : سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عد سبع مرات ، ولكن قد سمعته أكثر من ذلك قال « كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله ، فاتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يظأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت ، فقال : ما يبكيك أكرهتك ؟ قالت : لا ولكن هذا عمل لم أعمله قط ، وإنما حلني عليه الحاجة ، قال : فتفعلين هذا ولم تفعليه قط ؟ ثم نزل فقال : اذهبي بالدنانير لك ، ثم قال : والله لا يعصى الله الكفل أبداً ، فمات من ليلته ، فأصبح مكتوباً على بابه : غفر الله للكفل » هكذا وقع في هذه الرواية الكفل من غير إضافة ، والله أعلم ؛ وهذا الحديث لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة ، وإسناده غريب ، وعلى كل تقدير فلفظ الحديث إن كان الكفل ، ولم يقل ذو الكفل فلعلمه رجل آخر ، والله أعلم .

وَذَا التُّونِ إِذ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي

كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجِئْنَاهُ مِنَ الغَيْرِ وَكَذَلِكَ نُخَوِّجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

هذه القصة مذكورة هنا وفي سورة الصافات وفي سورة ﴿ ن ﴾ ، وذلك أن يونس بن متى عليه السلام ، بعثه الله إلى أهل قرية نينوى ، وهي قرية من أرض الموصل ، فدعاهم إلى الله تعالى ، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم ، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم ، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث ، فلما تحققوا منه ذلك وعلموا أن النبي لا يكذب ، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم ، وفرقوا بين الأمهات وأولادها ، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل وجأروا إليه ، ورجت الأبل وفصلاتها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وسخالها ، فرجع الله عنهم العذاب ، قال الله تعالى : ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها ، إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ . . . وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فلججت بهم ، وخافوا أن يغرقوا فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه ، فوقعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقوه ، ثم أعادوها فوقع عليه أيضاً فأبوا ، ثم أعادوها فوقع عليه أيضاً ، قال الله تعالى : ﴿ فساهم فكان من المدحضين ﴾ أي وقعت عليه القرعة فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه ، ثم ألقي نفسه في البحر ، وقد أرسل الله سبحانه من البحر الأخضر - فيها قاله ابن مسعود - حوتاً يشق البحار حتى جاء فانتقم يونس حين ألقي نفسه من السفينة ، فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ولا تمش له عظماً ، فإن يونس ليس لك رزقاً وإنما بطنك تكون له سجناً .

وقوله ﴿ وذا التون ﴾ يعني الحوت صحت الإضافة إليه بهذه النسبة . وقوله ﴿ إذ ذهب مغاضباً ﴾ قال الضحاك لقومه ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ أي نصيق عليه في بطن الحوت ، يروي نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم ، واختاره ابن جرير واستشهد عليه بقوله تعالى : ﴿ ومن قدر عليه رزقه فليفتق بما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾ سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴿ وقال عطية العوفي : أي فظن أن لن نقدر عليه ، أي نقضي عليه ، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير ، فإن العرب تقول : قدر وقدر بمعنى واحد ، وقال الشاعر :

فلا عائد ذلك الزمان الذي مضى تباركت ما تقدر يكن ذلك الأمر

ومنه قوله تعالى : ﴿ فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴾ أي قدر . وقوله ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنني كنت من الظالمين ﴾ قال ابن مسعود : ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل ، وكذا روي عن ابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبيرة ومحمد بن كعب والضحاك والحسن وقاتدة . وقال سالم بن أبي الجعد : ظلمة حوت في

بطن حوت آخر في ظلمة البحر ، قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما : وذلك أنه ذهب به الحوت في البحار يشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر ، فسمع يونس تسيح الحصى في قراره ، فعند ذلك وهنالك قال ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ وقال عوف الأعرابي : لما صار يونس في بطن الحوت ظن أنه قد مات ، ثم حرك رجله فلما تحركت سجد مكانه ، ثم نادى يارب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس . وقال سعيد بن أبي الحسن البصري : مكث في بطن الحوت أربعين يوماً . رواهما ابن جرير .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار عن حدثه عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ ﴿ لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت ، أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً ، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حساً فقال في نفسه : ما هذا ؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت إن هذا تسيح دواب البحر ، قال : وسيح وهو في بطن الحوت ، فسمعت الملائكة تسيحه فقالوا : يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة ، قال : ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر ، قالوا : العبد الصالح الذي كان يصعد اليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح ؟ قال : نعم ، قال : فشفعوا له عند ذلك ، فأمر الحوت فقذفه في الساحل ، كما قال الله تعالى : ﴿ وهو سقيم ﴾ رواه ابن جرير ، ورواه البزار في مسنده من طريق محمد بن إسحاق عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة فذكر بنحوه ، ثم قال : لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد .

وروى ابن أبي حاتم : حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن ابن أخي ابن وهب ، ثنا عمي ، حدثني أبو صخرة أن يزيد الرقاشي قال : سمعت أنس بن مالك ، ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ أن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال : اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك إني كنت من الظالمين ، فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش ، فقالت الملائكة : يارب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة ، فقال : أما تعرفون ذلك ؟ قالوا : لا يارب ومن هو ؟ قال : عبدي يونس ، قالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة ، قالوا : يارب أولاً ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ قال : بلى ، فأمر الحوت فطرحة في العراء .

وقوله ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم ﴾ أي أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات ﴿ وكذلك نتجي المؤمنين ﴾ أي إذا كانوا في الشدائد ودعونا منيبين لنا ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء ، فقد جاء الترغيب في الدعاء به عن سيد الأنبياء . قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عمير ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق الهمداني ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد ، حدثني والدي محمد عن أبيه سعد هو ابن أبي وقاص رضي الله عنه قال : مررت بعثمان بن عفان رضي الله عنه في المسجد ، فسلمت عليه ، فملا عينيه مني ثم لم يرد علي السلام ، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت : يا أمير المؤمنين هل حدث في الإسلام شيء ، مرتين قال : لا وما ذاك ؟ قلت لا ، إلا أني مررت بعثمان آنفاً في المسجد فسلمت عليه فملا عينيه مني ثم لم يرد علي السلام ، قال : فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه ، فقال : ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام ؟ قال : ما فعلت ، قال سعد : قلت بلى حتى حلف وحلفت ، قال : ثم ان عثمان ذكر فقال بلى وأستغفر الله وأتوب إليه ، إنك مررت بي آنفاً وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ ، لا والله ما ذكرت قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة ، قال سعد : فأننا أنبتك بها ، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته ، فلما اشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض ، فالتفت إلي رسول الله ﷺ فقال ﴿ من هذا ، أبو إسحاق ؟ ﴾ قال : قلت نعم يا رسول الله ، قال ﴿ فمه ﴾ قلت : لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك ، قال ﴿ نعم دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت ﴾ ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له ، ورواه الترمذي والنسائي في اليوم واللييلة من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه سعد به .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر عن كثير بن زيد عن المطلب بن حنطب ، قال أبو خالد : أحسبه عن مصعب يعني ابن سعد عن سعد ، قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ من دعا بدعاء يونس استجب له ﴾ قال أبو سعيد : يريد به ﴿ وكذلك نتجي المؤمنين ﴾ . وقال ابن جرير : حدثني عمران بن بكار الكلاعي ، حدثنا يحيى بن صالح ، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن ، حدثني بشر بن منصور عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : سمعت سعد بن أبي وقاص يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول ﴿ اسم الله الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى ﴾ قال قلت يا رسول الله . هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال ﴿ هي ليونس بن متى خاصة ، ولجماعة

المؤمنين عامة ، إذا دعوا بها ، ألم تسمع قول الله عز وجل ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك تنجي المؤمنين ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه به .
وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن أبي شريح ، حدثنا داود بن المحبرين معزم المقدسي عن كثير بن معبد قال : سألت الحسن فقلت : يا أبا سعيد اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى ؟ قال : ابن أخي أما تقرأ القرآن قول الله تعالى : ﴿ وهذا النون إذ ذهب مغاضباً - إلى قوله - وكذلك تنجي المؤمنين ﴾ ابن أخي هذا اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى .

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ وَرُوحَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسِرُّونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾

يخبر تعالى عن عبده زكريا حين طلب أن يهبه الله ولداً يكون من بعده نبياً ، وقد تقدمت القصة مبسطة في أول سورة مريم وفي سورة آل عمران أيضاً ، وههنا أخصر منها ﴿ إذ نادى ربه ﴾ أي خفية عن قومه ﴿ رب لا تذرني فرداً ﴾ أي لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في الناس ﴿ وأنت خير الوارثين ﴾ دعاء وثناء مناسب للمسألة ، قال الله تعالى : ﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ﴾ أي امرأته ، قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير : كانت عاقراً لا تلد فولدت . وقال عبد الرحمن بن مهدي عن طلحة بن عمرو عن عطاء : كان في لسانها طول ، فأصلحها الله وفي رواية : كان في خلقها شيء فأصلحها الله ؛ وهكذا قال محمد بن كعب والسدي ، والأظهر من السياق الأول .
وقوله ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ﴾ أي في عمل القربات وفعل الطاعات ﴿ ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾ قال الثوري : رغبا فيما عندنا ورهبا مما عندنا ﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أي مصدقين بما أنزل الله ، وقال مجاهد : مؤمنين حقاً . وقال أبو العالية : خاشعين . وقال أبو سنان : الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبداً . وعن مجاهد أيضاً : خاشعين أي متواضعين . وقال الحسن وقتادة والضحاك : خاشعين أي متذللين لله عز وجل ، وكل هذه الأقوال متقاربة . وقال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ، حدثنا علي بن محمد الطنافسي ، حدثنا محمد بن فضيل ، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن عبد الله القرظي عن عبد الله بن حكيم قال : خطبنا أبو بكر رضي الله عنه . ثم قال : أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله ، وتثبوا عليه بما هو له أهل ، وتخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الخاف بالمسألة ، فإن الله عز وجل أتى على زكريا وأهل بيته فقال ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴾ .

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾

هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليها السلام مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليها السلام ، فيذكر أولاً قصة زكريا ثم يتبعها بقصة مريم ، لأن تلك مربوطه بهذه ، فلما ايجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن ، ومن امرأة عجوز عاقرة لم تكن تلد في حال شبابها ، ثم يذكر قصة مريم وهي أعجب فانها ايجاد ولد من انثى بلا ذكر ، هكذا وقع في سورة آل عمران وفي سورة مريم ، وههنا ذكر قصة زكريا ثم اتبعها بقصة مريم بقوله ﴿ والتي أحصنت فرجها ﴾ يعني مريم عليها السلام ، كما قال في سورة التحريم ﴿ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾ .
وقوله ﴿ وجعلناها آية للعالمين ﴾ أي دلالة على أن الله على كل شيء قدير ، وانه يخلق ما يشاء ، وإنما امره اذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون ، وهذا كقوله ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عمر بن علي ، حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد عن شعيب يعني ابن بشير ، عن عكرمة عن ابن عباس في قوله ﴿ للعالمين ﴾ قال : العالمين الجن والإنس .

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كَمَا آتَيْنَا

رَجْعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ ﴿٩٤﴾

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن اسلم في قوله ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ يقول : ﴿ دينكم دين واحد ﴾ وقال الحسن البصري في هذه الآية بين لهم ما يتقون وما يأتون ، ثم قال ﴿ ان هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ أي سنتكم سنة واحدة ؛ فقلوه إن هذه إن واسمها ، وأمتكم خير إن ، أي هذه شريعتكم التي بينت لكم ووضحت لكم . وقوله أمة واحدة نصب على الحال ، ولهذا قال ﴿ وأنا ربكم فاعبدون ﴾ كما قال ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً - إلى قوله - وأنا ربكم فاتقون ﴾ وقال رسول الله ﷺ ﴿ نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد ﴾ يعني ان المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله ، كما قال تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ .

وقوله ﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم ﴾ أي اختلفت الأمم على رسلها فمن بين مصدق لهم ومكذب ، ولهذا قال ﴿ كل إلينا راجعون ﴾ أي يوم القيامة ، فيجازي كلًا بحسب عمله ، ان خيراً فخير وان شراً فشر ، ولهذا قال ﴿ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ﴾ أي قلبه مصدق وعمله صالحاً ﴿ فلا كفران لسعيه ﴾ كقوله ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ أي لا يكفر سعيه وهو عمله بل يشكر فلا يظلم مثقال ذرة ، ولهذا قال ﴿ وإنا له كاتبون ﴾ أي يكتب جميع عمله فلا يضيع عليه منه شيء .

وَحَرَامٌ عَلَى قَرْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ

حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُرِيدُونَ أَنَّا فِي عَفْوَهِ

مَنْ هَذَا بَلَّ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾

يقول تعالى : ﴿ وحرام على قرية ﴾ قال ابن عباس : وجب ، يعني قد قدر أن أهل كل قرية اهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة ، هكذا صرح به ابن عباس وأبو جعفر الباقر وقتادة وغير واحد . وفي رواية عن ابن عباس : أنهم لا يرجعون أي لا يتوبون ، والقول الأول اظهر ، والله اعلم . وقوله ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ﴾ قد قدمنا أنهم من سلالة آدم عليه السلام ، بل هم من نسل نوح أيضاً من أولاد يافث ، أي أبي الترك ، والترك شذمة منهم تركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين ، وقال ﴿ هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً ﴾ وتركتنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾ الآية ؛ وقال في هذه الآية الكريمة ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ﴾ أي يسرعون في المضي إلى الفساد ، والحدب هو المرتفع من الأرض ، قاله ابن عباس وعكرمة وأبو صالح والثوري وغيرهم ، وهذه صفتهم في حال خروجهم كأن السامع مشاهد لذلك ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ هذا إخبار عالم ما كان وما يكون ، الذي يعلم غيب السموات والأرض لا إله إلا هو .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن مثنى ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن عبد الله بن يزيد قال : رأى ابن عباس صبيانا يتزو بعضهم على بعض يلعبون ، فقال ابن عباس : هكذا يخرج يأجوج ومأجوج ، وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية .

[فالحديث الأول] قال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي عن ابن اسحاق عن عاصم بن عمرو بن قتادة ، عن محمود بن لبيد ، عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ﴿ تفتح يأجوج ومأجوج ، فيخرجون على الناس ، كما قال الله عز وجل ﴾ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ فيغشون الناس وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ، ويضمون إليهم مواشيهم ، ويشربون مياه الأرض حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون مائه حتى يتركوه يابساً ، حتى أن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول : قد كان ههنا ماء مرة ، حتى إذا لم يبق من الناس احد إلا أحد في حصن أو مدينة ، قال قائلهم : هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم بقي أهل السماء ، قال : ثم يهزأ أحدهم حربته ، ثم يرمي بها إلى السماء فترجع إليه مخضبة دماً لليلاء والفتنة ، فيبئها هم على ذلك بعث الله عز وجل دوداً في أعناقهم كغنف الجراد الذي يخرج في اعناقهم ، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس ، فيقول المسلمون : ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو؟ قال : فينحدر رجل منهم محتسباً نفسه قد أوطئها على أنه مقتول فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض ، فينادي : يامعشر المسلمين ألا أبشروا إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم ، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ، ويسرحون مواشيهم ، فما يكون لهم رعي إلا لحومهم ، فتشكر عنهم كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قطه ؛ ورواه ابن ماجه من حديث يونس بن بكير ، عن ابن اسحاق به .

[الحديث الثاني] قال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا الوليد بن مسلم أبو العباس الدمشقي ، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد ابن جابر ، حدثني يحيى بن جابر الطائي قاضي حمص ، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمي عن أبيه ، أنه سمع النواس بن سمعان الكلابي قال : ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة ، فحفض فيه ورفع حتى ظنناه في ناحية النخل ، فقال «غير الدجال أخوفني عليكم . فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم ، وإنه شاب جمع ققط عينه طافية ، وإنه يخرج خلة بين الشام والعراق فعاتث بيننا وشمالاً ياعباد الله اثبتوا - قلنا : يارسول الله مالته في الأرض ؟ - قال : أربعون يوماً ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم» قلنا : يارسول الله فذاك اليوم الذي هو كسنة ، أيكفينا فيه صلاة يوم وليلة ؟ قال «لا أقدرؤا له قدره» قلنا : يارسول الله فما إسرعه في الأرض ؟ قال كالغيث اشتد به الريح ، قال : فيمر بالحي فيدعوهم فيستجيبون له ، فيامر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كانت ذرى ، أمده خواصر ، وأسبغه ضرعاً ، ويمر بالحي فيدعوهم فردون عليه قوله ، فتبته أموالهم فيصبحون محملين ليس لهم من أموالهم شيء ، ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك فتبته كنوزها كيما سيب النخل - قال - ويأمر برجل فيقتل ، فيضربه بالسيف فيقطعها جزلتين رمية الغرض ، ثم يدعو فيقبل إليه ، فيبينا هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل المسيح عيسى ابن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً يديه على أجنحة ملكين ، فيتبعه فيدركه فيقتله عند باب لد الشرقي - قال - فيبينا هم كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم عليه السلام أني قد أخرجت عباداً من عبادي لا يدان لك بقاتلهم ، فحرر عبادي إلى الطور ، فبعث الله عز وجل ياجوج ومأجوج ، كما قال تعالى : ﴿وهم من كل حذب ينسلون﴾ فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل ، فيرسل عليهم نغفاً في رقابهم فيصبحون موتى كموت نفس واحدة ، فيهيط عيسى وأصحابه فلا يجدون في الأرض بيتاً إلا قد ملأه زهمهم وتنهم ، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل ، فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البخت ، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ؛ قال ابن جابر : فحدثني عطاء بن يزيد السكسكي عن كعب أو غيره قال : فتنطرحهم بالمهيل ؛ قال ابن جابر : فقلت يا أبا يزيد ، وأين المهيل ؟ قال : مطلع الشمس . قال «ويرسل الله مطراً لا يئكن منه بيت مدر ولا وبر أربعين يوماً ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة ، ويقال للأرض انبتي ثمرك ودري بركتك ، قال : فيومئذ يأكل النفر من الرمانة فيستظلون بقحفها ، ويبارك في الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس ، واللقحة من البقر تكفي الفخذ ، والشاة من الغنم تكفي أهل البيت ؛ قال : فيبينا هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل ريحاً طيبة ، فتأخذهم تحت أباظهم فتقبض روح كل مسلم - أو قال مؤمن - ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر وعليهم تقوم الساعة ؛ انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري ، ورواه مع بقية أهل السنن من طرق عن عبد الرحمن ابن يزيد بن جابر به . وقال الترمذي : حسن صحيح .

[الحديث الثالث] قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا محمد بن عمرو عن ابن حرمة ، عن خالته قالت : خطب رسول الله ﷺ وهو عاصب أصبعه من لدغة عقرب ؛ فقال «إنكم تقولون لاعدو لكم ، وإنكم لاتزالون تقاتلون عدواً حتى يأتي ياجوج ومأجوج : عراض الوجوه ، صغار العيون ، صهب الشفاف ، من كل حذب ينسلون كأن وجوههم المجان المطرقة» ، وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث محمد بن عمرو عن خالد بن عبد الله بن حرمة المدلجي ، عن خالته له ، عن النبي ﷺ ، فذكره مثله سواء .

[الحديث الرابع] قد تقدم في آخر تفسير سورة الأعراف من رواية الإمام أحمد عن هشيم ، عن العوام ، عن جبلة بن سحيم ، عن مرثد بن عمار ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : «لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام - قال فتذاكروا أمر الساعة فردوا أمرهم إلى إبراهيم ، فقال : لا أعلم لي بها ، فردوا أمرهم إلى موسى ، فقال : لا أعلم لي بها ، فردوا أمرهم إلى عيسى فقال : أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله ، وفيها عهد إلي ربي أن الدجال خارج ومعني قضيبان ؛ فإذا رأيته ذاب كما يذوب الرصاص ، قال : فيهلكه الله إذا رأيته حتى إن الحجر والشجر يقول : يا مسلم إن تحتي كافرأ ؛ فتعال فاقتله ؛ قال : فيهلكهم الله ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم - قال - فعند ذلك يخرج ياجوج ومأجوج ، وهم من كل حذب ينسلون ، فيطنون بلادهم ، ولا يأتون على شيء إلا أهلكوه ، ولا يمرون على ماء إلا شربوه - قال - ثم يرجع الناس إلى أوطانهم يشكونهم فأدعو الله عليهم فيهلكهم ويمتتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريمهم ، وينزل الله المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر ، وفيها عهد إلي ربي أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تنجؤهم بولدها ليلاً أو نهاراً .

ورواه ابن ماجه عن محمد بن بشار ، عن يزيد بن هارون ، عن العوام بن حوشب به نحوه ، وزاد : قال العوام :

ووجد تصديق ذلك في كتاب الله عز وجل ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون﴾ ورواه ابن جرير ههنا من حديث جبلة به . والأحاديث في هذا كثيرة جداً والأثار عن السلف كذلك ، وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث معمر عن غير واحد ، عن حميد بن هلال ، عن أبي الصيف قال : قال كعب إذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج ، حفروا حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم ، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول نجىء غدا فنخرج فيعيده الله كما كان ، فيجيثون من الغد فيجدونه قد أعاده الله كما كان ، فيحفرونه حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم ، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول نجىء غدا فنخرج ان شاء الله ، فيجيثون من الغد فيجدونه كما تركوه ، فيحفرون حتى يخرجوا ، فتمر الزمرة الأولى بالبحيرة فيشربون ماءها ، ثم تمر الزمرة الثانية فيلحسون طينها ، ثم تمر الزمرة الثالثة فيقولون : قد كان ههنا مرة ماء ، فيفر الناس منهم فلا يقوم لهم شيء ، ثم يرمون بسهامهم إلى السماء فترجع مخصبة بالدماء ، فيقولون : غلبنا أهل الأرض وأهل السماء ، فيدعو عليهم عيسى ابن مريم عليه السلام ، فيقول : اللهم لا طاقة ولا يد لنا بهم ، فاكفناهم بما شئت ، فيسلط الله عليهم دودا يقال له النغف ، فيفرس رقابهم ، ويبعث الله عليهم طيراً تأخذهم بمنابرها فتلقبهم في البحر ، ويبعث الله عنباً يقال لها الحياة يطهر الله الأرض وينبتها ، حتى إن الرمانة ليشبع منها السكن ، وقيل : وما السكن يا كعب ؟ قال : أهل البيت ، قال : فبينما الناس كذلك إذ أتاهم الصرير أن ذا السويقتين يريد ، قال فيبعث عيسى ابن مريم طليعة سبعائة أو بين السبعائة والثمانمائة حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، بعث الله رجلاً يمانية طيبة فيقبض فيها روح كل مؤمن ، ثم يبقى عجاج الناس ، فيتسافدون كما تتسافد الهائم ، فمثل الساعة كمثل رجل يطيف حول فرسه متى تضع ، قال كعب : فمن قال بعد قولي هذا شيئاً أو بعد علمي هذا شيئاً فهو المتكلف ، وهذا من أحسن سياقات كعب الأحبار لما شهد له من صحيح الأخبار .

وقد ثبت في الحديث أن عيسى ابن مريم يحج البيت العتيق ، وقال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود ، حدثنا عمران عن قتادة عن عبد الله بن أبي عتبة عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ وليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج انفراد بإخراجه البخاري وقوله ﴿واقرب وعد الحق﴾ يعني يوم القيامة إذا حصلت هذه الأحوال والزلازل والبلابل ، أزفت الساعة واقترت فإذا كانت وقعت ، قال الكافرون : هذا يوم عسر ، ولهذا قال تعالى : ﴿فإذا هي شاحصة أبصار الذين كفروا﴾ أي من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام ﴿يا ويلنا﴾ أي يقولون يا ويلنا ﴿قد كنا في غفلة من هذا﴾ أي في الدنيا ﴿بل كنا ظالمين﴾ يعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لا ينفعهم ذلك .

إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءَ إِلَهَةً
مَا وَرَدُوا وَهَآؤُكُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ
مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾
لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى مخاطباً لأهل مكة من مشركي قريش ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام والأوثان ﴿إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ قال ابن عباس : أي وقودها يعني كقوله ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ وقال ابن عباس أيضاً : حصب جهنم يعني شجر جهنم ؛ وفي رواية قال ﴿حصب جهنم﴾ يعني حطب جهنم بالزنجية . وقال مجاهد وعكرمة وقاتدة : حطبها ، وهي كذلك في قراءة علي وعائشة رضي الله عنها ، وقال الضحاك : حصب جهنم أي ما يرمى به فيها ، وكذا قال غيره ، والجمع قريب . وقوله ﴿أنتم لها واردون﴾ أي داخلون ﴿لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها﴾ يعني لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آفة صحيحة لما وردوا النار وما دخلوها ﴿وكل فيها خالدون﴾ أي العابدون ومعبوداتهم كلهم فيها خالدون ﴿لهم فيها زفير﴾ كما قال تعالى : ﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾ والزفير خروج أنفاسهم ، والشهيق ولوج أنفاسهم ﴿وهم فيها لا يسمعون﴾ .

قال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ، حدثنا علي بن محمد الطنافسي ، حدثنا ابن فضيل ، حدثنا عبد الرحمن يعني المسعودي عن أبيه قال : قال ابن مسعود : إذا بقي من يخلد في النار جعلوا في توابيت من نار فيها مسامير من نار ، فلا يرى احد منهم أنه يعذب في النار غيره ، ثم تلا عبد الله ﴿لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون﴾ ورواه ابن جرير من حديث حجاج بن محمد عن المسعودي عن يونس بن حبان عن ابن مسعود ، فذكره .

وقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَى﴾ قال عكرمة : الرحمة . وقال غيره ، السعادة ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله ، عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسوله ، وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقال ﴿أهل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ فكما أحسنوا العمل في الدنيا أحسن الله مأهم وثوابهم ، ونجاهم من العذاب وحصل لهم جزيل الثواب ، فقال ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي حريقها في الأجساد .

وقال ابن أبي حاتم . حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن عمار ، حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة عن أبيه عن أبي عثمان الحريري عن أبي عثمان ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ قال : حيات على الصراط تلسمهم ، فإذا لسعتهم قال : حس حس . وقوله ﴿وهم فيها اشتهدت أنفسهم خالدون﴾ فسلمهم من المحذور والمهروب ، وحصل لهم المطلوب والمحبوب . قال ابن أبي حاتم . حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن أبي شريح ، حدثنا محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني عن ليث بن أبي سليم عن ابن عم النعمان بن بشير عن النعمان بن بشير قال : وسمر مع علي ذات ليلة ، فقرأ ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَىٰ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قال : أنا منهم وعمر منهم وعثمان منهم والزيبر منهم وطلحة منهم وعبد الرحمن منهم ، أو قال : سعد منهم ، قال : أقيمت الصلاة ، فقام وأظنه يجر ثوبه وهو يقول ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ .

وقال شعبة عن أبي بشر عن يوسف المكي عن محمد بن حاطب قال : سمعت علياً يقول في قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَىٰ﴾ قال : عثمان وأصحابه ، ورواه ابن أبي حاتم أيضاً ، ورواه ابن جرير من حديث يوسف بن سعد ، وليس بابن ماهد عن محمد بن حاطب عن علي فذكره ولفظه عثمان منهم ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَىٰ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ فأولئك أولياء الله يمدون على الصراط مرأ هو أسرع من البرق ، ويبقى الكفار فيها جثياً ، فهذا مطابق لما ذكرناه ، وقال آخرون : بل نزلت استثناء من المعبودين ، وخرج منهم عزيز والمسيح ، كما قال حجاج بن محمد بن الأعمش عن ابن جريج وعثمان عن عطاء عن ابن عباس ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ ثم استثنى فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَىٰ﴾ فيقال : هم الملائكة وعيسى ، ونحو ذلك مما يعبد من دون الله عز وجل ، وكذا قال عكرمة والحسن وابن جريج . وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَىٰ﴾ قال : نزلت في عيسى ابن مريم وعزيز عليهما السلام ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا الحسين بن عيسى بن مسيرة ، حدثنا أبو زهير ، حدثنا سعد بن طريف عن الأصمعي عن علي في قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَىٰ﴾ قال : كل شيء يعبد من دون الله في النار إلا الشمس والقمر وعيسى ابن مريم ، إسناده ضعيف . وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قال : عيسى وعزيز والملائكة . وقال الضحاك : عيسى ومريم والملائكة والشمس والقمر ، وكذا روي عن سعيد بن جبيرة وأبي صالح وغير واحد ، وقد روى ابن أبي حاتم في ذلك حديثاً غريباً جداً ، فقال : حدثنا الفضل بن يعقوب المرخاني ، حدثنا سعيد بن مسلمة بن عبد الملك ، حدثنا الليث بن أبي سليم عن مغيث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَىٰ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قال : عيسى وعزيز والملائكة ، وذكر بعضهم قصة بن الزبيري ومناظرة المشركين قال أبو بكر بن مردويه : حدثنا محمد بن علي بن سهل ، حدثنا محمد بن حسن الأنماطي ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرعرة ، حدثنا يزيد بن أبي حكيم ، حدثنا الحكم يعني ابن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال : جاء عبد الله بن الزبيري إلى النبي ﷺ فقال : تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ فقال ابن الزبيري : قد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزيز وعيسى ابن مريم كل هؤلاء في النار مع آلهتنا؟ فنزلت ﴿وَمَا ضَرَبَ ابْنَ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونُ وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ ثم نزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَىٰ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ الْأَحَادِيثِ الْمُخْتَارَةَ ، وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : حَدَّثَنَا أَبِي ، حَدَّثَنَا قَبِيصَةُ بِنْتُ عَقْبَةَ ، حَدَّثَنَا سَفِيَانُ يَعْنِي الثَّوْرِيَّ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَصْحَابِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ قَالَ الْمُشْرِكُونَ : فَاَلْمَلَائِكَةُ وَعَزِيرٌ وَعِيسَى يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَانزَلَتْ ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَارَدُوهَا﴾ الْآلِهَةُ الَّتِي يَعْبُدُونَ ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وَرَوَى عَنْ أَبِي كَدَيْبَةَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِثْلَ ذَلِكَ وَقَالَ : فَانزَلَتْ ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَىٰ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ السَّيْرَةِ : وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيمَا بَلَّغَنِي يَوْمًا مَعَ الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ فِي الْمَسْجِدِ ، فَجَاءَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ حَتَّى جَلَسَ مَعَهُمْ ، وَفِي الْمَسْجِدِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ ، فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَعَرَضَ لَهُ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ فَكَلَّمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَفْحَمَهُ ، وَتَلَا عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ - ألى قوله - هم فيها

لا يسمعون ﴿ ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبير السهمي حتى جلس معهم ، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبير : والله ما قام النصر بن الحارث لابن عبد المطلب أنفاً ولا قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم ؛ فقال عبد الله بن الزبير : أما والله لو وجدته لخصمته ، فسلوا محمداً كل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ، فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيزاً ، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم ، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبير ورأوا أنه قد احتج وخاصم ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده ، إنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته » وأنزل الله ﴿ إن الذين سبقتم لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيبها وهم فيما اشتبهت أنفسهم خالدون ﴾ أي عيسى وعزير ومن عبدوا من الأحرار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله ، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله ، ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون - إلى قوله - ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ ونزل فيما ذكر من أمر عيسى وأنه يعبد من دون الله ، وعجب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون ﴾ وقالوا آلهتنا خير أم هو ماض بوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبي إسرائيل ﴾ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴿ وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها ﴾ أي ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسماء ، فكفى به دليلاً على علم الساعة ، يقول ﴿ فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم ﴾ وهذا الذي قاله ابن الزبير خطأ كبير ، لأن الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جاد لاتعقل ، ليكون ذلك تقريباً وتوبيخاً لعابديها ، وهذا قال ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ فكيف يورد على هذا المسيح وعزير ونحوهما ممن له عمل صالح ولم يرض بعبادة من عبده ، وعول ابن جرير في تفسيره في الجواب على أن ما لما لا يعقل عند العرب ، وقد أسلم عبد الله بن الزبير بعد ذلك ، وكان من الشعراء المشهورين ، وقد كان يهاجي المسلمين أولاً ثم قال معتزلاً :

يارسول المليك إن لساني راتق ما فتقت إذ أنا بور
إذ أجاري الشيطان في سنن الغي ومن مال ميله مشبور

وقوله ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ قيل : المراد بذلك الموت ، رواه عبد الرازق عن يحيى بن ربيعة عن عطاء ، وقيل : المراد بالفزع الأكبر النفخة في الصور ، قاله العوفي عن ابن عباس وأبو سنان سعيد بن سنان الشيباني ، واختاره ابن جرير في تفسيره ؛ وقيل : حين يؤمر بالعباد إلى النار ، قاله الحسن البصري ؛ وقيل : حين تطبق النار على أهلها ، قاله سعيد بن جبير وابن جريج ؛ وقيل : حين يذبح الموت بين الجنة والنار ، قاله أبو بكر الهذلي فيما رواه ابن أبي حاتم عنه ، وقوله ﴿ وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ يعني تقول لهم الملائكة تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم ﴿ هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ أي فأملوا ما يمسركم .

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعِندَ عَلَيْنَا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾

يقول تعالى : هذا كائن يوم القيامة ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وما قدرنا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ وقد قال البخاري : حدثنا مقدم بن محمد ، حدثني عمي القاسم بن يحيى عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السموات بيمينه » انفرد به من هذا الوجه البخاري رحمه الله . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن أحمد بن الحجاج الرقي ، حدثنا محمد بن سلمة عن أبي وأصل عن أبي المليلح الأزدي عن أبي الجوزاء الأزدي عن ابن عباس قال : يطوي الله السموات السبع بما فيها من الخليقة والأرضين السبع بما فيها من الخليقة يطوي ذلك كله بيمينه يكون ذلك كله في يده بمنزلة خردلة ، وقوله ﴿ كطي السجل للكتب ﴾ قيل : المراد بالسجل الكتاب ، وقيل : المراد بالسجل ههنا ملك من الملائكة ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا يحيى بن يمان ، حدثنا أبو الوفاء الأشجعي عن أبيه عن ابن عمر في قوله تعالى : ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ﴾ ، قال : السجل ملك ، فإذا صعد بالاستغفار قال أكتبها نورا ، وهكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب عن ابن يمان به ، قال ابن أبي حاتم : وروي عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين أن السجل ملك ، وقال السدي في هذه الآية : السجل ملك موكل بالصحف فإذا مات الإنسان رفع كتابه إلى السجل ، فطواه ورفعته إلى يوم القيامة ، وقيل : المراد به اسم رجل

صحابي كان يكتب للنبي ﷺ الوحي ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا نصر بن علي الجهضمي ، حدثنا نوح بن قيس عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس ﴿يوم نظوي السماء كطي السجل للكتب﴾ قال : السجل هو الرجل ، قال نوح : وأخبرني يزيد بن كعب هو العوذدي عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال : السجل كاتب للنبي ﷺ ، وهكذا رواه أبو داود والنسائي ، كلاهما عن قتيبة بن سعد عن نوح بن قيس عن يزيد بن كعب عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : السجل كاتب للنبي ﷺ ؛ ورواه ابن جرير عن نصر بن علي الجهضمي ، كما تقدم ؛ ورواه ابن عدي من رواية يحيى بن عمرو بن مالك النكري عن أبيه عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال : كان لرسول الله ﷺ كاتب يسمى السجل ، وهو قوله ﴿يوم نظوي السماء كطي السجل للكتب﴾ قال : كما يطوي السجل الكتاب كذلك تطوى السماء ، ثم قال : وهو غير محفوظ . وقال الخطيب البغدادي في تاريخه : أنبأنا أبو بكر البرقاني ، أنبأنا محمد بن محمد بن يعقوب الحجاجي ، أنبأنا أحمد بن الحسين الكرخي أن حدان بن سعيد ، حدثهم عن عبد الله بن غير عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر قال : السجل كاتب للنبي ﷺ ، وهذا منكر جداً من حديث نافع عن ابن عمر لا يصح أصلاً ، وكذلك ما تقدم عن ابن عباس من رواية أبي داود وغيره لا يصح أيضاً ، وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه وإن كان في سنن أبي داود منهم شيخنا الحفاظ الكبير أبو الحجاج المزني فسح الله في عمره ونسأ في أجله ، وختم له بصلاح عمله ، وقد أفردت لهذا الحديث جزءاً على حديثه والله الحمد . وقد تصدى الإمام أبو جعفر بن جرير للانكار على هذا الحديث ، ورده أتم رد ؛ وقال : لا يعرف في الصحابة أحد اسمه السجل ، وكتاب النبي ﷺ ، معروفون وليس فيهم أحد اسمه السجل ، وصدق رحمه الله في ذلك ، وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث ، وأما من ذكره في أسماء الصحابة ، فإنما اعتمد على هذا الحديث لأعلى غيره ، والله أعلم ؛ والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة ، قال علي بن أبي طلحة ، والعوفي عنه ، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد ، واختاره ابن جرير لأنه المعروف في اللغة ؛ فعل هذا يكون معنى الكلام يوم نظوي السماء كطي السجل للكتاب ، أي على الكتاب بمعنى المكتوب ، كقوله ﴿فلما أسلمنا وتله للجبين﴾ أي على الجبين ، وله نظائر في اللغة ، والله أعلم . وقوله ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ يعني هذا كائن لعمالة يوم يعيد الله الخلاق خلقاً جديداً كما بدأهم هو القادر على إعادتهم ، وذلك واجب الوقوع لأنه من جملة وعد الله الذي لا يخلف ولا يبدل ، وهو القادر على ذلك ، ولهذا قال ﴿إنا كنا فاعلين﴾ . وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع أبو جعفر وعبيدة العمى ، قالوا حدثنا شعبة عن المغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة ، فقال ﴿إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلاً ، كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا ، إنا كنا فاعلين﴾ وذكر تمام الحديث ، أخرجه في الصحيحين من حديث شعبة ، ذكره البخاري عند هذه الآية في كتابه ، وقد روى ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن عائشة عن رسول الله ﷺ نحو ذلك ، وقال العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ قال : يهلك كل شيء كما كان أول مرة .

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عَبْدِي الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ وَإِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ

عَالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ، ووراثه الأرض في الدنيا والآخرة ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لَ يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾ وقال ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ وقال ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم﴾ وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لعمالة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر﴾ . قال الأعمش : سألت سعيد بن جبيرة عن قوله تعالى : ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر﴾ فقال الزبور : التوراة والإنجيل ، والقرآن ، وقال مجاهد : الزبور الكتاب ، وقال ابن عباس والشعبي والحسن وقتادة وغير واحد : الزبور الذي أنزل على داود ، والذكر التوراة . وعن ابن عباس : الذكر القرآن ، وقال سعيد بن جبيرة : الذكر الذي في السماء . وقال مجاهد : الزبور الكتب بعد الذكر والذكر أم الكتاب عند الله ، واختار ذلك ابن جرير رحمه الله ، وكذا قال زيد بن أسلم : هو الكتاب الأول ، وقال الثوري : هو اللوح المحفوظ . وقال عبد الرحمن بن زيد ، بن أسلم : الزبور الكتب التي أنزلت على الأنبياء ، والذكر أم الكتاب الذي

يكتب فيه الأشياء قبل ذلك ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : أخبر الله سبحانه وتعالى في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض ، ويدخلهم الجنة وهم الصالحون . وقال مجاهد عن ابن عباس ﴿إن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ قال : أرض الجنة ، وكذا قال أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبيرة والشعبي وقتادة والسدي وأبو صالح والربيع بن أنس والثوري ، وقال أبو الدرداء : نحن الصالحون . وقال السدي : هم المؤمنون ، وقوله ﴿إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين﴾ أي أن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لبلاغاً لمنفعة وكفاية لقوم عابدين ، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه ، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان ، وشهوات أنفسهم وقوله ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ يخبر تعالى أن الله جعل عمداً ﷺ رحمة للعالمين أي أرسله رحمة لهم كلهم فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة ومن ردها وجحدتها خسر الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ﴿الم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبش القرار﴾ وقال تعالى في صفة القرآن ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ . وقال مسلم في صحيحه حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا مروان الفزاري عن يزيد بن كيسان عن ابن أبي حازم عن أبي هريرة قال : قيل يا رسول الله ادع على المشركين . قال ﴿إني لم أبعث لعاناً ، وإنما بعثت رحمة﴾ انفرد بإخراجه مسلم . وفي الحديث الآخر ﴿إنما أنا رحمة مهداة﴾ رواه عبد الله بن أبي عوانة وغيره عن وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً . قال إبراهيم الحربي . وقد رواه غيره عن وكيع فلم يذكر أبا هريرة . وكذا قال البخاري وقد سئل عن هذا الحديث ، فقال : كان عند حفص بن غياث مرسلًا .

قال الحافظ بن عساكر : وقد رواه مالك بن سعيد الخمس عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً ، ثم ساقه من طريق أبي بكر بن المقرئ وأبي أحمد الحاكم ، كلاهما عن بكر بن محمد بن إبراهيم الصوفي ، حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري عن أبي أسامة عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ﴿إنما أنا رحمة مهداة﴾ ثم أورده من طريق الصلت بن مسعود عن سفيان بن عيينة عن مسعر عن سعيد بن خالد ، عن رجل عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ ﴿إن الله بعثني رحمة مهداة بعثت برفع قوم وخفض آخرين﴾ .

قال أبو القاسم الطبراني : حدثنا أحمد بن محمد بن نافع الطحان ، حدثنا أحمد بن صالح قال : وجدت كتاباً بالمدينة عن عبد العزيز الدراوردي وإبراهيم بن محمد بن عمر بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عمرو بن عوف ، عن محمد بن صالح التمار عن ابن شهاب ، عن محمد بن جبيرة بن مطعم عن أبيه قال : قال أبو جهل حين قدم مكة منصرفه عن خمره : يا معشر قريش إن محمداً نزل يثرب وأرسل طلائعه ، وإنما يريد أن يصيب منكم شيئاً ، فاحذروا أن تمروا طريقه أو تقاربوه ، فإنه كالأسد الضاري ، إنه حتى عليكم لأنكم نفيتموه نفي القردان عن المناسم ، والله أن له لسحرة مارأيته قط ولا أحداً من أصحابه إلا رأيت معهم الشياطين ، وأنكم قد عرقتم عداوة ابني قبيلة يعني الأوس والخزرج ، فهو عدو استعان بعدو ، فقال له مطعم بن عدي : يا أبا الحكم والله مارأيت أحداً أصدق لساناً ، ولا أصدق موعداً من أخيكم الذي طردتم ، وإذ فعلتم الذي فعلتم ، فكونوا أكف الناس عنه ، قال أبو سفيان بن الحارث : كونوا أشد ماكنتم عليه إن ابني قبيلة إن ظفروا بكم لم يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ، وإن اطعمتموني الجأتموهم حير كنانة أو تخرجوا محمداً من بين ظهرانيهم ، فيكون وحيداً مطروداً ، وأما ابنا قبيلة فوالله ما هما وأهل دهلك في المدلة إلا سواء وسألكم حدهم ، وقال :

سامنح جانباً مني غليظاً
على ما كان من قرب وبعد
رجال الخزرجية أهل ذل
إذا ما كان هزل بعد جد

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال ﴿والذي نفسي بيده ، لأقتلنهم ولأصلبنهم ولأهدينهم وهم كارهون ، إني رحمة بعثني الله ولا يتوفاني حتى يظهر الله دينه ، لي خمسة أسماء أنا محمد وأحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر ، وأنا الخاشع الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب﴾ وقال أحمد بن صالح : أرجو أن يكون الحديث صحيحاً . وقال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا زائدة ، حدثني عمرو بن قيس عن عمرو بن أبي قرة الكندي قال : كان حذيفة بالمدائن فكان يذكر أشياء قالها رسول الله ﷺ ، فجاء حذيفة إلى سلمان ، فقال سلمان : يا حذيفة إن رسول الله ﷺ خطب فقال ﴿إنما رجل سبته في غضبي أو لعنته لعنة ، فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما تغضبون ، وإنما بعثني الله رحمة للعالمين فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة﴾ .

ورواه أبو داود عن أحمد بن يونس عن زائدة ، فإن قيل : فأي رحمة حصلت لمن كفر به ؟ فالجواب مارواه أبو جعفر بن جرير : حدثنا إسحاق بن شاهين ، حدثنا إسحاق الأزرق عن المسعودي عن رجل يقال له سعيد عن سعيد بن

جبير عن ابن عباس في قوله ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ قال : من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما اصاب الأمم من الخسف والقذف ؛ وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث المسعودي عن أبي سعد وهو سعيد بن المرزبان البقال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فذكره بنحوه ، والله أعلم ؛ وقد رواه أبو القاسم الطبراني عن عبدان بن أحمد عن عيسى بن يونس الرملي عن أيوب بن سويد عن المسعودي عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ قال : من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يتبعه عوفي مما كان يتلى به سائر الأمم من الخسف والمسح والقذف .

قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّهُ وَجَدَّ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿٧٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨١﴾ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى أمراً رسولاً صلواته وسلامه عليه ان يقول للمشركين ﴿إنما يوحي الي انما الحكم إله واحد فهل انتم مسلمون﴾ أي متبعون على ذلك مستسلمون متقادون له ﴿فإن تولوا﴾ أي تركوا مادعوتهم إليه ﴿فقل آذنتكم على سواء﴾ أي اعلمتكم اني حرب لكم كما انكم حرب لي بريء منكم كما أنتم براء مني ، كقوله ﴿فإن كذبوك فقل لي عملي ولكم أعمالكم انتم بريئون مما اعمل وانا بريء مما تعملون﴾ وقال ﴿واما تخافن من قوم خيانة فانيذ اليهم على سواء﴾ أي ليكن علمك وعلمهم بنيد العهد على سواء ، وهكذا ههنا ﴿فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء﴾ أي اعلمتكم ببراءتي منكم وبراءتكم مني لعلمي بذلك .

وقوله ﴿وان ادري اقريب أم بعيد ماتوعدون﴾ أي هو واقع لاحالة ، ولكن لاعلم لي بقربه ولا ببعده ﴿انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون﴾ أي ان الله يعلم الغيب جميعه ويعلم ما يظهروه العباد وما يستره ، يعلم الظواهر والضمائر ، ويعلم السر وأخفى ، ويعلم ما العباد عاملون في أجهارهم وأسرارهم ، وسيجزئهم على ذلك القليل والجليل . وقوله ﴿وان ادري لعله فتنة لكم ومتاع الى حين﴾ أي وما ادري لعل هذه فتنة لكم ومتاع الى حين . قال ابن جرير : لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومتاع الى أجل مسمى ، وحكاه عون عن ابن عباس فانه أعلم ﴿قال رب احكم بالحق﴾ أي افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق . قال قتادة : كانت الانبياء عليهم السلام يقولون ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ وأمر رسول الله ﷺ ان يقول ذلك . وعن مالك عن زيد بن أسلم : كان رسول الله ﷺ إذا شهد غزاة قال ﴿رب احكم بالحق﴾ . وقوله ﴿وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ أي على ما يقولون ويفترون من الكذب ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك ، والله المستعان عليكم في ذلك .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْفُؤَارَ بَعْضِكُمْ إِنَّا زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَفِءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُنْزِلُ كُلُّ مَرَضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَاهُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾